أغنيات



يوسف السباعي

أغنيات

الإهـــداء

إلى ....

« أم كلثوم » و« عبد الوهاب »

أهدى صدى صوتيهما .. وترديد أغاريدهما .

فمن ألحانهما سطرت كتابى .

ومن أغنياتهما استوحيت أغنياتى ..

يوسف السباعى

مقدمة

ما من كائن فى هذه الحياة إلا يشجيه اللحن الجميل وتطربه الموسيقى العذبة .. ولكل إنسان لحنه ، وموسيقاه ، التى تمس من نفسه موضعا حساسا ، فلا يكاد يسمعها حتى يطير ذهنه إلى موضع معين من أيامه الخوالى ، ويبصر على ضوئها صورة من صور الماضى التى طواها الزمن ، وقد تصيبه من ذكراها فرحة أو لوعة ، وقد تشجيه وقد تبكيه .. حسب ذلك الجو الذى سمعها فيه أول مرة ، وحسب تلك الصلة التى تربطه بالشخص الذى سمعها منه . ولكن الشيء الذى لا شك فيه أنه مهما كان لتلك الألحان من وقع حزين أو بهيج ، ومهما كان من مرارتها أو حلاوتها فإن لها فى النفس لذة عجيبة ونشوة ممتعة .

ولست أجد كالألحان والأغانى لغة تتفاهم بها القلوب الولهى والنفوس الصبة الذائبة .. فربّ قلبين فرّق بينهما البعد وأحرقهما طول الهجر والحرمان ، طاف بهما فى وحدتيهما لحن باك أو صوت شاد.. فأطفأ منهما حرقة ، وضمد جرحا وشفى قرحا ، وقرب بينهما حتى لكأنهما التقيا على بعد الشقة ونأى المزار .

ألم يجلس أحدكم ذات ليلة وقد طبقت على نفسه أثقال من الحزن وحطت على قلبه أكوام من الأسى .. وجمدت الدموع فى مقلتيه فأمسى وكأنه جلمود شقاء ، أو يأس ؟

ألم يسر إليه لحن أو طافت به أغنية صهرت دمعه وأذابت حزنه .. وبددت جاثم يأسه ، وذرت داكن شقائه ؟

ليست الأغانى أصواتا تصدر من الحناجر وتنبس بها الشفاه ، ولا رنينا ينبعث من الأوتار والمزامير والدفوف ، لكنها نشوات القلوب واهتزازات الأرواح .. هى ذوب المشاعر المرهفة والأحاسيس الحارة المتدفقة .

إنى لأذكر نفسى بعد وفاة والدى وأنا صبى فى الرابعة عشرة وقد خيم على البيت الحزن وجثم علينا السكون المطبق الرهيب .. أذكر نفسى فى أساى وشرودى وقد أخذت أغنى بصوت خافت — بلا وعى ولا إرادة — أغنية كنت لا أفتأ أرددها فى ذلك الحين . ودهش من حولى ، وأمرونى بالكف عن الغناء .. لأن مقام الحزن لا يلائمه الغناء .

ومع ذلك ل أكف عن الغناء .. فقد كنت لا أرى هناك تناقضا بين حزنى وغنائى ، بل كنت أشعر أن غنائى قطعة من حزنى .. وأن بينهما توافقا كاملا وانسجاما تاما .

واليوم .. عندما أجلس لأكتب .. والقلب فى ركود ، والذهن قد استنفد ما به من ذكريات حب قديم .. وخلا من آثار حب جديد .. أجد من العسير علىّ أن أكتب عن العشاق وأقص أحاديث الحب .. حتى يثير مشاعرى سماع لحن جميل أو ترديد شعر رقيق ، فإذا القلب يترنح طربا ، والذهن ينفض عنه غبار الكسل ، وإذا القلم يجرى على الورق ليسطر « أغنيات » .

يوسف السباعى

يا ساكن القلب

يا ساكن القلب طيفك مر فى بالى
وراح وسابنى عليل حبه بقى وبالى
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالى
وهو ساهى وسالى ما افتكر فيه
ينسى عهود الهوى ويهجر ولا يبالى
المؤلف

كنت بالأمس كذّابا كبيرا .

كنت مضطرا إلى ذلك .. وكان يتحتم علىّ أن ألقى إليهم بتلك الأكذوبة الكبرى .

وإلا فأية فجيعة كانت تصيبهم لو أنى قذفتهم بسلسلة الحقائق التى كانت تتتابع فى ذهنى وقتذاك ؟

لو تركت لنفسى لما توانيت لحظة فى الإفضاء بكل ما كان يطوف بذهنى .. وفى أن أقول الحقيقة عارية سافرة .. لا لأنى أكره الكذب أو أترفع عنه .. فليس أسهل علىّ منه . وحاشاى أن أدعى المثالية فأقول إنى إنسان صادق لا يكذب ، لأنى ما وجدت سوى الكذب حلالا للمشاكل ، ومناعا للمصائب ، وما وقيت نفسى من شر المصاعب والمتاعب بأيسر من الكذب .

أقول إنى كنت أود أن أقول الحق .. لا لترفع عن الكذب ، بل لأن الحق — فى هذه المرة بالذات — كان حقا طريفا مسليا ، وكان أجدى وأنفع للمكذوب عليهم من هذه الكذبة الملفقة المنمقة .

ولكنى كنت مرغما عليه ، وكان مفروضا علىّ فرضا . وكان من الجنون أن أخلع عنى ذلك الثوب الفخم الأنيق الذى ألبستنى إياه أوهام لأبدو مخلوقا مجردا عاديا لا خوارق به ولا معجزات .

أذكر ذات مرة أن أحد زملائى فى المدرسة .. اشتغل بالتدريس .. وأصبح مدرّسا لأخى الأصغر .. وجاء أخى ذات يوم يسألنى : أحقا أن « فلان افندى » كان الأول فى المدرسة ؟ وأحقا أنه كان بطلا للكرة والملاكمة ؟.. وأنه كان .. وكان .. ولم أتمالك من الضحك ، فقد كان صاحبى هذا مثلا للكسل وبطلا فى الخيبة .. وسألته من قال له هذا فأجاب بأنه يبدو كذلك ، وأنهم سألوه فلم ينكر بل وأكد ظنونهم وطلب منهم أن يجمعوا بين الدراسة والرياضة وأن يتخذوا منه قدوة لأنه كان فى صباه كذا وكذا .. والتقيت بصاحبى وسألته ضاحكا عما دعاه إلى تلك الأكاذيب فأجابنى دهشا : « ماذا كنت ترانى قائلا لهم وهم يأبون إلا إحاطتى بهالة من الإعجاب .. إن من العسير علىّ خذلانهم ، وأسهل منه أن أجاريهم فى الخديعة وأخدع نفسى » .

ولقد وجدت نفسى فى مثل مأزق صاحبى ، وكان من العسير علىّ خذلانهم ، فجاريتهم فى الخديعة .. ولكنى لم أخدع نفسى .

أجل والله .. لقد كنت طوال الخديعة أذكر جيدا من أنا ، ومن كنت ، وكيف صرت .. كان لسانى ينطلق بالأكذوبة الضخمة .. أما ذهنى فكان يأبى التخلص من الحقائق الواقعة ، لأنها كانت لذيذة .

إذا كانوا هم يأبون إلا رؤيتى على هذه الصورة البهية ، فلهم ما يريدون .. أما أنا .. فلا أستطيع .

من أدرى بنفسى منى ؟

إنى ما زلت كما كنت ، نفس الصبى الذى كان يعدو فى فناء المدرسة ، ويقفز على ساق واحدة خلال الفسح ، ما أحسست فى باطنى أنى قد تغيرت ، بل إنى لأشعر دائما بنفسى « الهيافة » وقلة العقل ، « والشيطنة » ، التى تدعونى لأن

أفعل ما كنت أفعل فى صباى ، لولا أنى أتلفت حولى فأجد ظاهرى يكذب باطنى ، وأجد من حولى يحترموننى ، ويبجلوننى ، ويحيطوننى بهالة من التقدير أنكص على عقبى .. وأجاريهم فى تقديرهم ، وأدعى الرزانة والتعقل .

إى والله ، لقد كدت أعدو من بينهم لأهز شجرة التوت ، القائمة فى ركن الفناء بجوار العقلة والمتوازى والحصان .. لقد كان هزّ التوتة فيما مضى والتقاط التوت المتساقط أحب متعة إلىّ فى المدرسة ، وأبعث شىء لى على الفرار من قضاء الساعات الطويلة ، منصتا إلى سخافات الدروس والتفكير فى حل رموزها وألغازها وأحاجيها .

وكان من أشق الأمور على نفسى أن أرى التوتة بعد تلك الفترة الطويلة من الغيبة ، قائمة أمامى بجذعها الضخم ، وأوراقها العريضة المتكاثفة ، وفروعها المكللة بالتوت ، ثم أظل متباعدا عنها ، مغفلا إياها ، سائرا الهوينا فى عقل وتؤدة .

ولكن ماذا أملك سوى ذلك .. وقد التف بى ذلك الحشد الرزين المتئد ، وسار بجوارى حضرة الناظر المحترم يرينى نواحى المدرسة ويستعرض لى مبانيها وفصولها ويشير إلى مبنى المعامل بعصاه قائلا :

ـــ أظنك تلاحظ التغيير الكبير الذى طرأ عليها .. لقد أضفنا إليها جناحا بأكمله ، وبنينا طابقا ثانيا ، وفصلنا مدرج الأحياء عن بقية المدرجات .. أما معامل الكيمياء فقد نقلناها من مكانها القديم الضيق ، وأضحت تشغل الجناح الجديد بأكمله .. هيا بنا لمشاهدتها من الداخل ، لقد تغيرت كثيرا عن أيامكم ، ولا شك أنك ستسر برؤيتها .

ولم أكن أملك إلا أن أوافق على أنى سأسر برؤيتها ، وأن أعدل عن ذلك الخاطر الشيطانى الذى كان يدفعنى بأن أتركهم وأعدو لهز التوتة .. وأن أسير وعلى وجهى سيماء السعادة والاهتمام ، إلى معامل الطبيعة والكيمياء والأحياء .

وهكذا أخذنا فى المرور على المعامل ، وقد تملكنى خليط من المشاعر المختلفة

المتناقضة .. كنت أحس فى وقت واحد بالندم والضيق والخوف والشفقة والفرح .. الندم لأنى تركت التوتةِ دون أن أهزّها ولو مرة واحدة ، والضيق من المعامل نفسها إذ كانت تحمل لى ذكريات مريرة ، فقد كنت ذا ماض فى الطبيعة والكيمياء غير مشرف وكنت أمضى جل وقتى فى مدرجاتها ، وأنا شارد الذهن ، غارب البال ، لا أفهم شيئا من رموزها ومعادلاتها ولا ما ينتجه خلط حوامضها .

أما الشفقة فقد كانت على التلاميذ الذين احتشدوا فى المدرجات ، وجلسوا ينصتون بالإكراه إلى يد ٢ كب أ ٤ وأمثالها من الرموز .

أما الخوف ، فكان خوفا من أن أجد نفسى فجأة قد عدت لأصلَى سعير المدرجات والمعامل .. أما الفرح فقد كان لتأكدى فى النهاية من استحالة عودتى تلميذا ، ومن نجاتى من شر التلمذة نجاة أبدية .

ولم أنصت بالطبع إلى شيء مما كان يقوله المدرسون الذين مررنا بهم ، لأنى لم أكد أقف بجوار الناظر وأنظر إلى السبورة حتى عاودتنى عادتى القديمة فى السرحان والشرود .

وظللنا نجول حتى استقر بنا المقام أخيرا فى حجرة الناظر ، وأقبل علينا أحد الفراشين بالقهوة ، وأخذت أحتسيها مرغما ذاكرا نصيحة والدتى بألا أرفض قهوة يقدمها إلىّ مضيف حتى لا أضطره إلى أن يكلف نفسه فيحضر لى شيئا آخر .

ولسعت القهوة لسانى كعادتى فى كل مرة أحتسى فيها قهوة ، ولكننى لم أجرؤ على الشكوى فقد كان علىّ أن أبدو كبيرا محترما (كييف) قهوة .

وبدأ الناظر حديثه وهو يقول مرحبا :

هذه زيارة عزيزة ، وكرم منك كبير أن تجشم نفسك مشقة السفر لأجل حضور حفلنا المتواضع ، ولكنه فضل غير مستغرب ، ومنة غير مستبعدة ، فلا أظن الوفاء لمعهدك القديم ينقص حميد خصالك .

ولم أدر بم أجيب ، فحتى الآن لم أتوصل بعد إلى معرفة كيف يجيب الإنسان

على المديح ، ولم يكن يزعجنى شيء قدر التعرّض لكلمات مديح ، ولا كان يعيينى شيء أكثر من الرد عليها ، وأطرقت برأسى وقلت متلعثما الكلمة الوحيدة التى يمنّ علىّ الله بها فى مثل هذه الظروف :

— العفو .

ووددت أن أوقف بهذه الكلمة سيل المديح المتدفق المنهمر ، ولكن الرجل استمر فى قوله :

— إن المدرسة يشرّفها أن تخرج رجلا عظيما مثلك .. ويسعدنا فى الواقع نحن المشرفين على تربية هذا الجيل أن نرى أبناءنا قدوة حسنة ملموسة ومثلا أعلى حيا كائنا .. وأن نجعلك أمامهم هدفا يسعى إليه .. ولذا فلن تستطيع أن تتصور مبلغ سعادتنا بوجودك بيننا ومشاركتنا حفلنا السنوى .

وأطرقت برأسى مخلدا إلى الصمت ، وأخيرا أجبت مخلصا :

— الواقع أنى أكثر سعادة .. فليس أحب إلى الإنسان من أن يعود إلى مرتع صباه .. إن كل شيء بالمدرسة يجدد لى ذكرى عزيزة وماض جميل .. إنى قضيت فى هذا الفناء وبين هذه الجدران أسعد أيام حياتى ، وحاشاى أن أنسى فضل هذا المعهد علىّ .

— ليس لأحد فضل عليك .. لقد كنت نابغة من يومك .. إنى أذكرك جيدا ، فلقد درست لك فى إحدى السنين عندما كنت مدرسا بالمدرسة ، وأذكر أن النبوغ كان يشع من عينيك .

من عينى أنا ؟

كله إلا هذا ...

ولكن ماذا أقول له إذا كان يذكر هذا جيدا ، وإذا كان واثقا تمام الثقة من هذا النبوغ الذى كان يشع من عينى .

ماذا أقول له ؟.. أأقول له إنه أكد لى ذات مرة أنى أغبى تلميذ رآه فى حياته ؟

ولكن لا .. لا داعى للفضائح .. لقد أمر الله بالستر .

وعدت أنصت إليه وهو يسترسل فى قوله :

ـــ إنى أذكر أنك كنت أول فصلك دائما ، وكنت مثلا للجد والاجتهاد .

وعاد ذهنى يبحث فى زوايا الماضى عن مرة واحدة كنت فيها الأول .. فلم يذكر سوى مرة واحدة كنت فيها الأول .. لسبب واحد هو أنى كنت الممتحن الوحيد ، لأنى مرضت فى الامتحان الأصلى ، وامتحنت وحدى .

واستمر الرجل فى قوله :

ـــ وكنت مثلا للأخلاق الطيبة ، والسلوك الحميد .

وتذكرت عندما رفت من المدرسة لسوء السلوك .. عندما هربت من المدرسة وقفزت من فوق السور للتجديف فى النيل .

وهكذا أخذ الرجل يعدد مواهبى ، والذهن الخبيث يكشف لى نقائضها .. حتى انتهى الرجل من سردها وبدأ يتحدث فى برنامج الاحتفال قائلا :

ـــ سيبدأ اليوم الحفل الرياضى عقب انتهاء الدراسة مباشرة ، وستقوم الفرق الرياضية المختلفة بعمل بعض مباريات استعراضية ، وستجرى مباراة كرة قدم بين فريق المدرسة وبين الخريجين .. فإذا رغبت فى الاشتراك فيها ..

ـــ لا .. لا داعى .. تكفينى المشاهدة .

ـــ كما تشاء .

ـــ وما بعد ذلك ؟

ـــ تقوم الفرق الرياضية بعمل استعراض عام .. ثم يبدأ بعد ذلك فى توزيع الجوائز ، وأظنك لن تبخل علينا بشرف توزيعها .

ـــ ليس أحب إلىّ من ذلك .. إن هذا شرف عظيم لى .

ـــ وبعد توزيع الجوائز سيتناول المدعوون من أولياء الأمور والخريجين الشاى مع الطلبة ، وفى خلال الشاى تلقى بضع كلمات مناسبة ثم تبدأ بعد ذلك الحفلة التمثيلية وسيقوم الطلبة فيها بتمثيل مسرحية لويس الحادى عشر .

ـــ مسرحية بديعة .. أذكر أننا قد قمنا بتمثيلها بضع مرات فى أيامنا .

— أظن ذلك ، وفى خلال الاستراحة سيلقى الطلبة نشيد المدرسة .. لعلك تذكره أيضا .

نشيد المدرسة ! أما زالوا ينشدونه ؟

— أجل إنه نشيدك أنت .. النشيد الذى نظمته وأنت تلميذ .. إن المدرسة تعتز به وستظل تنشده إلى الأبد .

يا مصر يا أمتـــــــــى	يا طـــيب أرض الوطـــن
يا مصر نحن الحمـــــــى	من عاديـــــات الزمــــن
نقـــــدم ولا ننثنــــــى	ولــــــــو نذوق المحن
لا نخاف الموت أو نجبن وإن	قلب الدهـر لنـا ظهـر المجن
نقهر الدهر ونسخر بالزمـن	وأمـام النيـل نجثـو سجّـــدا

أليس ذلك هو مطلعه ؟

— أجل .. أجل .. إنك ما زلت تذكر .

— كانت جرأة منى فى ذلك أن أقدم على قرض الشعر ، وأنا ما كنت بشاعر قط ..

— لقد كنت نابغة .. كنت رساما وخطاطا وشاعرا وزجالا وقصاصا ولاعب هوكى وكرة ، وكنت بعد ذلك تلميذا ناجحا .. أليس ذلك نبوغا ؟

— لم يكن نبوغا بالفطرة .. لقد كان نبوغا مفتعلا .. أو مجلوبا بالإرادة .. لقد أردت أن أكون نابغة لسبب .

— سبب ؟. أى سبب ؟!

وأطرقت برأسى برهة ثم ضحكت ضحكة قصيرة وأجبت :

— سبب خاص .. لا أظن الوقت يسمح بسرده .

— ولا نابغة .. ولا حاجة.إنها مسألة حظ .. لقد حق علىّ المثل : قيراط بخت ولا فدان شطارة .

ودق الجرس مؤذنا بانتهاء الحصة الأخيرة .. فنهضت واقفا وقلت له :

ـــ هيا بنا .

ـــ انتظر لحظة .. لى عندك رجاء أخير .

ـــ خيرا .. ما هو ؟

ـــ أريد منك أن تلقى كلمة خلال الشاى .

ـــ كلمة ؟. أى كلمة ؟

ـــ كلمة نصح للطلبة .

ـــ أرجوك أن تعفينى .. إنى لا أجيد .. لا الكلام ، ولا النصح .

ـــ لا .. لا .. لا بد أن تقول كلمة .

ـــ إنى لا أعرف شيئا عن الوعظ والإرشاد .

ـــ ليس وعظا .. إن كل ما أبغيه منك أن تسرد على الطلبة سر نجاحك .. أريد منك أن تنبئهم أن النجاح لا يكون إلا بالمثابرة والجد والاجتهاد وطيب الخلق وحسن السلوك .. إنهم يحبونك ويرون فيك مثلهم الأعلى ، ولذا فيجب عليك أن تدلهم على الطريق إلى مثلهم الأعلى ، وترشدهم إلى المسلك السوى المستقيم .. إنهم جيل قد دب فيه الفساد .. جيل مائع مدلل مخنث لا يجيدون سوى المظاهرات والإضرابات والعدو وراء البنات فى الطرقات.لا يعرفون غير الفوضى ومشاكسة النساء .

ـــ ولكن ..

ـــ لا ، ولكن .. إن هذا أقل واجب عليك نحو معهدك القديم . وبدا لى من حديث الرجل ، أنه لا مفر لى من هذا المأزق . وأنه لا بد لى من الوقوف خطيبا واعظا بين التلاميذ .

ولكن أى طريق هذا الذى يرغب الرجل فى أن أدل الطلبة عليه وأرشدهم إليه ؟ الجد والمثابرة والاجتهاد وطيب الخلق ؟ ولكن أهذا هو الطريق الذى أوصلنى إلى ما يسميه عبقريا ونابغة ؟

لا أظن .. إن مثل الجد والمثابرة والاجتهاد وطيب الخلق .. ما زال يرزح

تحت ملفات أرشيف وزارة المالية . ولم يفد كثيرا من جده ومثابرته وطيب خلقه .

أأقول لهم حقا عن الطريق الذى أوصلنى ؟

ولكن لا .. لا .. إنى لو صدقت القول ، وسردت الحقيقة .. لفجعت الناس والرجل فىّ .. بل ليس بمستبعد أن يسقط الرجل صريعا وسط الحفل .

ليس أمامى غير الكذب .

يجب علىّ أن أحضر ورقة وقلما وأجلس لكتابة قطعة محترمة من النفاق .. يجب أن أحدثهم عن الجد والمثابرة وسهر الليالى فى طلب المعالى .. يجب أن أشرح لهم قول الشاعر : (إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر) .

وجلست لأكتب ، ولا أكذبنكم القول .. إن المهمة لم تكن سهلة .. حقيقة أنه ليس أسهل علىّ من الكتابة ، ولكن أى نوع من الكتابة ؟

الكتابة المخلصة الصادقة .. لا .. لا الكتابة المصطنعة المفتعلة .. إنى قد أكتب قصة من أربعمائة صفحة بمنتهى السهولة .. فى الوقت الذى أعجز فيه عن كتابة خطاب من والدتى إلى أحد أقربائنا .. أقرئه فيه التحية والسلام ..

ولكن لم يكن من الكتابة بد ، فكتبت :

« إخوانى وسادتى :

أشكر الظروف الطيبة التى هيأت لى فرصة قضاء يوم بينكم فى معهدنا العزيز ، وأشكر ناظرنا الجليل الذى أتاح لى فرصة التحدث إليكم » .

ولكن ما ذنبكم أنتم أثقل عليكم بهذا الخطاب الثقيل الممل المحشو بالكذب ، المليء بالنفاق . إنكم لا شك تعرفونه فلا بد قد ألقى عليكم مثله فى ظروف ما ، إن كل خطب الوعظ والتأبين والتكريم .. ذات أقوال معروفة لا تكاد تخرج عنها إلا فى الحواشى التافهة ، ولا تكاد تختلف إلا فى مداها من النفاق حسب ضآلة أو فخامة المناسبة التى تقال فيها .

وانتهيت من إعداد الخطبة .. أو الكلمة كما سماها حضرة الناظر ، وخرجنا معا

لمتابعة برنامج الاحتفال .. أتريدون أن أصف لكم المباريات الرياضية ؟ لا أظن .. دعونا ننتقل من ملعب إلى ملعب ، ودعونا ننتهى من مشاهدة المباريات ومن تفريق الجوائز ، ثم نستقر على موائد الشاى .

ونهضت لافتتاح الخطب بإلقاء كلمتى فقرأتها من الورق ، وأخذت نصيبى من التصفيق ، وجلست حامدًا الله .

وتواترت الخطب بعد ذلك ، وأنا قد رزئت بذهن بينه وبين الخطب عداء مستحكم ، فهو يرفض رفضا باتا أن يتبع منها كلمة واحدة ، ويأبى إلا الشرود والسرحان .

وسرحت فى ذكريات قديمة ، ووجدتنى أقارن بين ما قلت وما كان يجب أن أقول ، وأخذت أستعرض طريق النبوغ من أوله .. الطريق الذى ادعيت كذبا أنه الجد والكد والصبر والمثابرة .

ولكن . أحقا أننى قد ادعيت كذبا ؟ وأننى ما كنت قط مجدا ، مكدا ، صبورا ، مثابرا ؟ لنتبع الطريق من أوله ولنر .. فقد أكون حقا مخلوقا جد وكد وثابر وصابر .

قد أكون ، وقد لا أكون . ولكن الذى أستطيع أن أجزم به أننى لو سردت الواقع .. لأحدثت به ضجة ، ولفجعت الناظر المحترم . واتهمت منه بالجنون ، والحمق .

لندع الخطباء مغرقين فى خطبهم ، ولندع الأكف منهمكة فى التصفيق ، ولنتبع الذهن الشارد فى ربوع الماضى الجائل فى رباه .

إنى لأرى نفسى — المتهم بالنبوغ والعبقرية — خلوا من كل ما يبشر بعبقرية .. أو يدل على نبوغ ، بل إنى لأرانى محروما حتى من الذكاء العادى ، ومن أى صفة تنبئ بخير .

بالبنطلون القصير ، والطربوش الطويل مكبوس على أذنى ملاصق لحاجبى .. لا يكاد الجرس يؤذن بانتهاء الحصة حتى أنطلق والرفاق إلى فناء

المدرسة فنحدد بالطباشير قطعة أرض ثم نعدو على ساق واحدة يمسك بعضنا بعضا فى لعبة (أتانسيو) ، وأنت ترانا فى عدونا إلى الفناء ملهوفين مسرعين حتى لكأننا نخشى أن تفلت منا بضع ثوان بغير عدو ولا لعب .

وفى الفسحة الكبرى .. فسحة الغداء .. ننطلق فى الفناء دافعين بأقدامنا زلطة منتقاة مستديرة .. مستعيضين بها عن الكرة ، ونظل نضربها بأقدامنا حتى تبلى أحذيتنا وتتآكل .

وهكذا كنت فى العدو مثالا للمثابرة والجد .. أما فى الحصة فقد كنت .. كعادتى حتى الآن .. شارد الذهن غائبه ، وكان أكثر ما يستحوذ على انتباهى .. بيت يعمل فيه البناؤون ويبدو على بعد خلال الشباك المواجه .. كنت أجلس فى مقعدى لا هم لى إلا مراقبة سير عملية التشييد والبناء .. حتى لكأنى مكلف من أصحاب البيت بهذه المهمة .. بل إنى لواثق أن أصحابه أنفسهم أو المقاول القائم على بنيانه .. ما كانوا يتبعونه بمثل ما أتبعه من مثابرة واهتمام .

فلما تم البيت أحسست بخيبة أمل كبرى ، وبدأت أبحث عن تسلية أشغل بها نفسى عن الاستماع إلى الدروس .. ولم تكن التسلية بمستعصية .. إذ لم يكن أسهل علىّ من أن أغرى جارى بأن يشاركنى لعبة السنون (وهى محاولة قلب سن الريشة بسن آخر) فإذا ملّ جارى اللعبة .. لجأت إلى إحدى الروايات التى كنت أقبل عليها وقتذاك بنهم فوضعتها على حجرى أسفل الدرج وانهمكت فى قراءتها .. فإذا استعصت الرواية لم أجد أمامى سوى التشاغل برسم المدرس فى الكشكول .

كنت أكره الدورس ولم أجد هناك دافعا يدفعنى إلى أن أشقى نفسى بالالتفات أو الاستذكار ، ورغم ذلك فقد بدأت تنشأ لى سمعة بين المدرسين والتلاميذ بأننى نبيه . ولكنى كسول ومهمل .. أما الكسل والإهمال .. فشىء كنت واثقا منه .. أما النباهة .. فقد كنت أول منكر لها لأنى كنت واثقا أنى محروم منها تماما . وكانت والدتى أدرى الناس بذلك فقد كنت دائما أذيقها

فصولا تدل على منتهى الغباء .. بل إن كرهى لعلوم الرياضة من هندسة وجبر وحساب وعجزى عن حل مسائلها .. كان فى نظرى أكبر دليل على خلوى من الذكاء والنباهة .

وهكذا أدهشنى أن أتهم بالنباهة ، ولكنى لم ألبث أن أدرك أن مبعث هذه التهمة كان مدرسا العربى والرسم ، إذ كان كلاهما يعتقد أن لدىّ موهبة ، ولكنها تحتاج إلى إنماء وصقل ، وتحتاج إلى جهد منى ومثابرة حتى تظهر وتبرز ، ولكنهما كانا موقنين أنها لن تظهر ولن تبرز ، وأننى سأظل خاملا مغمورا .. لأنى مثل لإنسان مكسال متراخ .

ولم أكن أنا أعرف شيئا عما يسمونه موهبة .. كل ما فى الأمر أنى كنت أحب كتابة بعض موضوعات الإنشاء التى تقع من نفسى موقعا طيبا ، وكنت أقبل على بعض الرسوم التى يلذ لى رسمها ، وكان المدرسان : مدرس العربية ومدرس الرسم يطربان لما كنت أكتب وأرسم ويمنحانى أقصى الدرجات ، ولكنى لا كاد أنال رضاءهما حتى أخذلهما خذلا شديدا فى كتابة أو رسم موضوعات لا أجد من نفسى لهفة عليها .

كانا يطلبان منى أن أركز جهدى ، وأن أحاول الصبر وتفهم المبادئ والأصول ، ولكنى كنت أكره التركيز وأكره كل ما فيه مبادئ وأصول وبحث ودراسة .

وحاول مدرس العربية أن يشركنى فى جمعية الأدب بالمدرسة وفى تحرير المجلة ، وحاول جهده أن يشجعنى ويدفعنى إلى الأمام . ولكنى خيبت أمله خيبة شديدة .

وكذلك مدرس الرسم ، حاول عبثا أن يدخلنى فى جمعية الرسم ولكنى أثبت له أنى مخلوق لا فائدة ترجى منه ، ولا نفع يؤمل فيه .

والواقع أنى لم أكن أدرى ، علام يجهد الإنسان نفسه ولم يفعل ما يضايقه ويتعبه ، وأى شىء يجبرنا على هذه المشقة التى يسمونها التركيز والجد والاجتهاد والمثابرة !

ألا يكفى التلميذ مجرد النجاح حتى ينتقل من سنة إلى أخرى ، وحتى لا يرسب فيتهم بالتقصير !

هكذا كنت أفعل .. كنت أقوم بالجهد الذى يجعلنى أكاد أنجح ، وكان هذا الجهد لا يحتاج إلا إلى مذاكرة بضعة أسابيع قبل أى امتحان .

أما هذا الذى يرجوه مدرس العربية ومدرس الرسم من تنمية موهبة ، ونبوغ وعبقرية .. فكنت لا أفهم له معنى .. كنت أعتبره سخافة مدرسين .

كان مدرس العربية يقول لى : أيها الكسول .. يجب أن تكتب كثيرا ، إن مثلك يمكن أن يكون كاتبا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الخمول والتراخى لن يجعل منك أكثر من كاتب حسابات .

ومن قال لهذا العجوز أننى أود أن يشار إلىّ بالبنان ؟ بل ما فائدة أن يشار إلى الإنسان بالبنان ؟.. ليس هناك فى الحياة ما يستحق الجهد .. إن كل ما حولى أشبه بالفلاة القفراء لا يبدو منها للإنسان هدف يسعى إليه .

كنت فى الرابعة عشرة وقتذاك .. وكنت أحس من حولى فراغا شديدا لا أدرك مبعثه .

هذا الفراغ الخالى من الهدف الذى أحاط بى ، وأنا مخلوق مرهف الحس ، هو السبب فى ذلك الخمول والتراخى الذى كان مدرسا العربى والرسم أكثر من يعرفهما .

وكنت فى بعض الأحيان عندما أخلو إلى نفسى أسائلها كيف يصير العظماء عظماء ، والنوابغ نوابغ .. لا بد أن يكون هناك دافع يدفعهم .. لا يمكن أن يكدّ بلا سبب ولا مناسبة .. لا يمكن أن يعدو المرء بلا هدف يقصد إليه .

وهكذا ظللت أعلل خمولى وبلادتى بالحاجة إلى الهدف .. دون أن أحاول أن أصرح لنفسى أى نوع من أنواع الهدف ذلك الذى أفتقده .

ومع ذلك فقد كنت أعرف أنه هدف يبغيه القلب .. وأن الإنسان يجب عليه قبل أن يكون نابغة ، أن يحب .

أجل ! لا شيء يدفع الإنسان إلى الكد ، والمثابـرة ، والاجتهاد ، سوى الحب .

وبهذا التفكير ، وفى وسط هذا الفراغ من الخمـول والبـلادة ، لاح لى الهدف .

لاح الهدف .. فمحى منى الخمول والبلادة .. وملأنى بالجد والمثابرة ، ولكنه نوع من الجد والمثابرة لا يمكن أن يؤدى لنبوغ ولا نجاح ، بل إنه كان جدا فى طريق ، حرمنى حتى من ذلك النجاح التافه الذى كنت أحصل عليه فى آخر كل عام والذى كان ينقلنى إلى السنة التالية .

كان الهدف ، أو بلهجة أوضح ، كانت الحبيبة ، جارة جديدة لنا .

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أشرع فى سرد تفاصيل الواقعة .. أن أعطى لكم وصفا مجملا للمدرسة والدار والمنطقة المحيطة .

كانت المدرسة هى إحدى المدارس الثانوية الكائنة فى إحدى المديريات ، وكانت تقع فى طرف ناء من أطراف البندر مشرف على المزارع المترامية ، وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقوم بضع دور متناثرة فى الخلاء بينها داران متجاوران كانت دارنا إحداهما .

والوحدة فى هذه المنطقة تجبر أهل هذه الدور على الاختلاط والتزاور ، وهكذا كنا وأصحاب الدار المجاورة فى صحبة وثيقة ، حتى انتقل صاحبها إلى بلدة أخرى ، ونزل بها ساكن جديد .

ومضت بضعة أيام قبل أن تذهب والدتى لزيارة عائلة الساكن الجديد ، فلما ذهبت لزيارتها عادت من الزيارة تمدح طيب أصلها وكرم محتدها ، وتنبئنا أن رب العائلة هو مدرس التاريخ الجديد فى مدرستنا ، وأنه يقطن هو وزوجته وأمها ، وأخذت تتغنى بجمال زوجته وظرفها ولطفها ورقتها ، وقالت إن أمها سيدة تركية عجوز ، شديدة الطيبة ، كريمة المنبت .. ولم يكن يهمنى كثيرا وصف السيدتين بل كان الرجل نفسه موضع اهتمامى .. كنت أريد أن أعرف :

هل هو إنسان طيب ، أم إنه ثقيل ملحاح ؟ وهل من عادته أن يسأل فى أول كل حصة ، أو هل يفاجئ الطلبة بالأسئلة خلال الشرح ؟

هذا هو ما كان يهمنى من جارنا الجديد ، ولكن والدتى بالطبع لم تستطع أن تعطينى عنها إجابة شافية ، ومع ذلك فقد استطعت أنا أن أعرف الإجابة على هذه الأسئلة .. عندما دخل علينا المدرس الجديد لأول مرة .

كان مخلوقا رقيقا مهذبا .. ولم يحاول أن يقوم بتلك الألاعيب التى كان يقوم بها سلفه ، من مفاجأتنا بالسؤال فى خلال الشرح ليعرف ما إذا كنا منصتين أم غافلين .

كان رجلا طيبا يلقى الدرس فى هدوء ، ثم يسأل عما إذا كان أحد منا يريد الاستفهام عن شىء لم يفهمه ، ثم يغادر الفصل بسلام .

وهكذا كان صاحبنا مدرسا نموذجيا فى نظرى ، يهيئ لى الفرصة الطيبة للشرود والسرحان ، دون أن يرغمنى على الاستماع أو يقطع علىّ حبل تفكيرى ، ودون أن أتوجس منه خيفة ، أو أتوقع شرا .

هذا عن المدرس .. أما عن عائلته فما كنت أظنها تعنينى فى شىء حتى أرسلتنى والدتى ذات يوم لأستعير منهم إبرة ماكينة لأن إبرتنا قد كسرت .

ودلفت من باب الحديقة ، وعبرت الممر إلى الباب الداخلى ثم طرقت الباب .

وفتحت لى .. امرأة جميلة .

وارتكبت أمامها برهة .. ثم قلت متلعثما .. من أنا .. وماذا أريد .

ابتسمت السيدة ابتسامة رقيقة ، وأفسحت لى الطريق للدخول .. وهى تسألنى عن حالنا ، وعن حال والدتى ، وأجلستنى مرحبة على أحد المقاعد ، وقبل أن تحضر لى الإبرة المطلوبة أحضرت لى طبقا من الكمثرى .. وألحت علىّ فى تناول إحداها .

وكنت طيلة مدة جلوسى شديد الارتباك ، متلعثم اللسان ، لا أكاد أخرج بالرد عن لا ونعم .

وأخيرا أخذت الإبرة وانطلقت إلى دارنا .

عدت إلى الدار وفى رأسى صورة مضطربة مشوشة عنها . فإننى من فرط ارتباكى لم أجسر على أن أرفع إليها بصرى فى نظرة طويلة مدققة بل كنت أسترق منها نظرات خاطفة أشبه برشف الحساء الساخن ، أو حسو الطائر الفزع .

كيف كانت سالبة اللب .. وسارقة النهى ؟

كيف كانت ؟

لا أظن وصفها بالشىء الهيِّن .. فإنى حين أجلس الآن بعد هذه السنوات الطويلة .. وقد وخط الشيب فودى ، وخطت التجارب رسومها تجاعيد حول عينى ، وأحاول استرجاعها إلى ذاكرتى .. لأستعين بالذاكرة على وصفها أجد من المستحيل علىّ أن أصورها بتلك الصورة التى كنت أراها بها فعلا وأنا صبى فى الرابعة عشرة ...

بل إنى لأرى المسألة برمتها ، مسألة صعبة التصور .. ولولا أنى تعوّدت ألا أسخر من فعل أيا كان .. لكنت أول الساخرين من فعلى وقتذاك .

كيف لا .. وهى مهما قلت من شكلها وسحرها وفتنتها ، لا يمكن أن تقل فى سنها بحال من الأحوال عن والدتى .

لقد كنت وقتذاك فى الرابعة عشرة ، فى السنة الثالثة الثانوية ، ما زلت أرتدى البنطلون القصير ، وكانت هى ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين .. وكانت زوجة مدرسى .. وصديقة والدتى ، ولم يكن هناك أى مبرر أو معنى لحبها .. ومع ذلك فقد أحببتها .

مسألة عجيبة !! وغير معقولة ؟

ولكن لا .. إن من الخطأ أن أقول أحببتها .. فقط .

إن المسألة تحتاج إلى كثير من الشرح والتفصيل ، لكى يذهب عنها على الأقل بعض العجب الذى بها .

إنها حقا كانت فى مثل سن والدتى .. ولكن شتان بين مظهرها ومظهر والدتى .

شتان بين جسد سمين مترهلٍ أنهكه حمل وولادة وتربية ثلاثة أولاد .. وبين جسد ، أهيف ، ملفوف ، ممشوق ، متناسق ، لم يتلفه حمل ، ولا ولادة ، ولا رضاع .

والسيدة نفسها ، سواء نظرت إليها بعينى الخبيرة المجرّبة أو بعين الصبى المغمضة الوالهة .. فإنى أراها باهرة الجمال ، وضاءة المحيا ، حلوة البسمات ، تتسم بالطابع التركى ، المشرق الوجه ، الفاحم الشعر .

إذاً فقد كان بها من جمال الخلق ما يجعل حبها من أى كائن كان .. أمرا معقولا .. ولقد كانت فوق هذا مخلوقة رقيقة .. طيبة .. ودودة .. يقطر حديثها حلاوة .. ويفيض رقة .

لم تكن بها تلك الشراسة والصرامة فى الخلق التى تبدو من كل سيداتنا فى دورهن ، نحو الخدم ونحو أهل الدار ، ما سمعتها قد تنهر إنسانا ، وما رأيتها غاضبة أو ثائرة ، ولا أظن هناك وصفا أصدق من وصف والدتى الذى كانت تنعتها به دائما وهو « أميرة .. زى السُّكَّرة » .

وهكذا كانت .. سكَّرة .. شكلا .. وموضوعا .. ظاهرا وباطنا .

لهذا أحببتها .. حب أبرار أطهار .. بلا غرض ولا مطلب ، ولا حتى مجرد تفكير فى عاقبة أو نتيجة .

لقد أحببتها كما يحب الإنسان وهو فى القرن العشرين أحد أبطال تاريخ ما قبل الميلاد ، أو كما يحب طالب فى مشتهر الزراعية أنجريد برجمان فى هوليوود .

لقد كنت أعيش فى فراغ طويل عريض ، مقفر خال ، أفيكون عجيبا .. إذا أنا شغلته بأجمل من مرَّ بى وأطيبهن ، وأكرمهن ؟

إن المسألة لا تحتمل لا منطقا ولا تفكيرا .. فهى كلها أوهام فى أوهام ، وشغل الفراغ بكائنة أيا كانت لن يحاسبنى عليه إنسان .

إن الفراغ ملكى .. وتفكيرى فيها ملكى .. وحبى لها ملكى .. وكل شىء ما دام لا يتجاوز حدود ملكيتى مستطاع ، فما الذى يمنعنى من ذلك الحب ؟

ثم .. متى كان الحب .. فى أول العمر ، أو فى صباه أو فى آخره .. منطقيا معقولا ؟

لقد أحببتها .. وليكن ما يكون .

ولست أزعم بالطبع أنى أحببتها من أول نظرة .. بل إن حبها أخذ يتسلل إلى نفسى مع الزمن ومع استمرار الرؤيا ، ودوام الاختلاط .

تلك كانت مبررات الحب ودوافعه .

كيف كانت مظاهره ؟

لقد كان حبا عجيبا .. فاقدا لكل مظاهر الحب وآماله . إذ كان من الجنون أن أفكر فى أن أطلع أحدا عليه .. أو أدع أحدا يستبينه .. حتى هى نفسها .. فقد كنت مدركا مدى شذوذه ، وكنت واثقا من أننى يجب ألا آمل منه شيئا .

وماذا يمكن أن آمل ؟. إنها زوجة ، سعيدة .. هانئة ، وحتى لو لم تكن لا سعيدة ولا زوجة .. فما أظن الخبل قد بلغ بها حدا إلى أن تفكر فى صبى مثلى فى الرابعة عشرة من عمره .

وأنا نفسى كنت بعيد التفكير عن مسألة الزواج ، ولم أكن أعتبره غاية حتمية لكل حب .. بل كنت أتوهم الحب شيئا سماويا أو علاقة أثيرية يمكن أن تربط اثنين إلى الأبد ، حتى ولو لم تحدث بين جسديهما أية صلة أو رابطة .

هل كنت أرجو أن يحدث بيننا مناجاة وهوى متبادل ؟ لا أظن .. لقد كان حبى لها مشوبا باحترام يجعلنى أستنكر من نفسى مجرد التفكير فى أن أهبط بها إلى مستوى العشاق العاديين الذين يتبادلون العناق والقبل .

ماذا كانت إذاً مظاهر حبى وأعراضه ؟.. هل ظلت مخفية فى صدرى ، طاوية فى حناياى ؟

لا .. فما أظن هذا إلا كان قاتلى .

لقد خرجت حبى فى شكل خدمات أقوم لها بها ، وهيأت لى الظروف بسهولة تلك الخدمات .. فأقبلت أؤديها بلهفة وإخلاص .

كان أكثر ما يسعدنى أن أفعل لها شيئا ، وكان لديها الكثير مما تطلبه منى .. لست أدرى ألأنها كانت تريده فعلا أم لأنها كانت تود أن تسعدنى .. أم لأنه كان يسرها رؤيتى ؟

على أية حال .. الأمر الذى لا شك فيه هو أنى أضحيت أقرب المقربين إليها ، وأنى بت عزيزا عليها .

حاشاى أن أزعم أنها بادلتنى حبا بحب .. فقد كانت سيدة كاملة عاقلة ، ولكن ذلك لا يمنع من أن تكون أحبتنى بطريقتها الخاصة ، ووضعتنى بالنسبة لها موضع حبيب خاص كانت تفتقده .. فقد كانت محرومة من الأبناء ، وكنت بطاعتى لها ، وبتلبيتى رغباتها جديرا بأن أتخذ منها مكان الابن غير الكائن .

هذا هو ما أستطيع رؤيته الآن ، وإن كنت وقتذاك لم أحاول بحثه بل انغمرت سعيدا فى ذلك الحب الذى كانت تغدقه علىّ .

وكانت حديقة دارها هى المجال المتسع الذى جعلت أصول فيه وأجول بخدماتى ، والذى ضيّع علىّ عاما بأكمله وكان السبب فى رسوبى فى الامتحان .

كانت هى التى تتولى أمر الحديقة ، وقد سمعتها ذات مرة تشكو من البستانى من أنه كسول لا يقوم بالشقرفة والسقى كما يجب ، وأنها قد تعبت منه ، وأن الحديقة قد تلفت .

ومنذ ذلك اليوم وقد أضحى سلاحى .. الشؤرف .. لا أتحرك لحظة إلا وهو فى جيب البنطلون ، وبعد أن كانت والدتى توقظنى فى الصباح بدل المرة عشرات ، ولا تكاد توقظنى حتى أعود إلى النوم .. أصبحت أنهض من تلقاء نفسى قبل الشروق ، فأرتدى ملابسى والأهل نيام ، وأنطلق بالشؤرف إلى حديقتها .. فأظل أعمل فيها حتى قبيل موعد دخول المدرسة فأنطلق أعدو لأصل فى آخر لحظة .

ولم يقتصر الأمر على مجرد الشقرفة والسقى .. بل تعداه إلى ابتياع البذور والشتل ، وسرقة ما تيسر من القصارى من حدائق الدور المجاورة .. ثم بدأت

أقوم بقص أسوار الدرنته والجهنمية.وكنت أجلس فى المدرسة طول اليوم شارد الذهن فيما سأفعله فى الحديقة وفيما سأحضره من الأزهار ، وأستحث الساعة .. فلا يكاد ينتهى اليوم حتى أنطلق إليها .

وهكذا لم يمر العام إلا وقد أصبحت من أجلها بستانيا ماهرا ، ومحت من رأسى كل اعتبار لى كتلميذ ، ولم يعد يلذ لى رسم ولا كتابة ، وكف مدرسى عن اتهامى بأى نوع من أنواع الذكاء أو النبوغ .

ولقيت ما لقيت من تأنيب على الرسوب ، ولكنى لم آبه له كثيرا ، وكنت واثقا أنه ما من أحد يشك فى حقيقة أمرى أو يخطر بباله أننى عاشق .

وقضيت خلال العطلة الدراسية أهنأ أيام حياتى .. فقد كنت أكاد أكون مقيما فى حديقتها ، وكان مرور الأيام قد وطد العلاقات بين أسرتينا وزاد الاختلاط بيننا حتى لا يكاد يمر يوم دون أن تكون إحدى الأسرتين فى دار الأخرى .

قلت إنى كنت واثقا من أنه ما من أحد يمكن أن يشك فى حقيقة مشاعرى .. حتى سمعت ناقوس الخطر يدق ذات يوم خلال حديث دار بينها وبين أمها .

لم أكن أقصد استراق السمع ولكنى كنت أقوم كعادتى بالشقرفة فى الحديقة عندما حضرتا لتجلسا تحت التكعيبة التى كنت أعمل بجوارها مختفيا وراء أحد أحواض الزهور .

قالت الأم :

ــ يجب أن تقتصدى قليلا فى مشاعرك نحو محمود وفى تقريبك له .

ــ أقتصد فى مشاعرى نحوه ؟ لست أفهم ما تعنين !

ــ إذا كنت لا تفهمين حقا .. فيجب أن تفهمى .. إن محمود ليس طفلا .. إنه صبى يافع .

ــ إنى لا أرى فيه أكثر من ابن .

ــ ولكنه قد يرى فيك أكثر من ذلك .. إنى أعرف أنك عاقلة وكبيرة ،

وأفهم جيدا إحساسك نحوه ، ولست أنصحك من أجل نفسك ، ولا لأنى أخشى عليك الزلل ، ولكنى أنصحك من أجل الصبى نفسه .. إنك لا تعرفين مشاعر الصبية فى دور المراهقة ولا تعرفين شيئا عن طريقة تفكيرهم ، ولكنى أكثر منك خبرة بهم .. لقد أنجبت من قبلك إخوتك وخبرت تفكيرهم وتصرفهم فى هذه السن ، ولهذا فإنى أخشى على الصبى من تشجيعك له .. إنى أعلم أنك حسنة القصد ، وأن حبك له لا يحمل فى طياته أكثر من حب أم ، ولكنه قد لا يفهم هو ذلك .. فيسبب تشجيعك إياه وتقريبك له ضررا كبيرا وقد يصيبه بصدمة نفسية ورد فعل عنيف .. ولذا فإنى أرى من الخير أن تصديه .

ــ هكذا كثير يا أماه .. لا تحملى الأوضاع أكثر من حقيقتها . إن محمودا مخلوق رقيق ، وهو ما زال صبيا صغيرا . وأنا أحبه كابنى حقا .

ــ ولذا أطلب إليك أن تصديه .. لقد قلت نصيحتى قبل أن تضطرى زوجك إلى أن يقولها لك .. أرجوك ألا تحرجى أحدا .. إن الإنسان لا يستطيع أن يطلق مشاعره كما يشاء .. لا بد لنا من أن نكبح جماحها من آن لآخر .. يجب أن نعمل بعقولنا لا بقلوبنا .

وتسللت من الحديقة ذلك اليوم ، وأنا أشعر بناقوس يدق داخل رأسى .

لقد تملكنى من الحديث خوف شديد .. فقد كرهت أن أثير حولها قيلا وقالا ، وأن أعرضها من أجلى لنصح حتى ولو كان من أمها .

وصممت من ذلك اليوم على ألا أذهب إلى هناك أبدا ، وأن أصد نفسى قبل أن أضطرها إلى صدى .

ومر يومان ، والثالث ، وأنا ممعن فى البعد .. دون أن أحاول أن أريها لى وجها .. وفى اليوم الرابع أحسست أنى أوشك أن أجن .

لقد كنت تماما كمدمن المخدرات الذى يمنع عنه المخدر مرة واحدة ويطلب منه أن يقلع عن تعاطيه .

أجل .. لقد وصلت إلى حال .. لو طال بى لارتميت على الأرض وصرخت

فيهم باكيا .. أريد أن أراها .. ولكن الأمر لم يكن يستدعي ذلك .. فما منعنى أحد عن رؤيتها .. وما حاول أحد أن يثير كلمة شك حولى .. على النقيض .. لقد كان انقطاعى عن الذهاب هو الذى أثار التساؤل فى الدارين .

وهكذا وجدتنى أجرّ قدمىّ متسللا إلى الحديقة .. كمهجر شفه الظمأ وأضناه السغب .. فأنتحى منها ركنا قصيا وأستغرق فى بكاء طويل .. غسلت به أحزان قلبى ونفضت به أكوام اليأس الجاثمة على نفسى .

ولم أفكر بعد ذلك فى أن أصد نفسى عنها أبدا .

وأقبلت هى علىّ فى اليوم التالى معاتبة على غيابى ، ولائمة على هجرى ، فاعتذرت بأنه كان لدىّ امتحان كنت أستذكر له .

وأنبأتنى بأنها تريد حزمة من الغاب تغطى بها سقف « عشة الدجاج » التى قامت بإصلاحها بيديها خلال اليومين اللذين غبت فيهما .. والتى كانت تعتمد علىّ فى إصلاحها .

وعندما أفكر فى قولها الآن يتملكنى دهش شديد من تلك السعادة الكبرى التى غمرتنى منه .

لقد كنت إنسانا غير طبيعى فى ذلك الوقت .. ما فى ذلك شك .. ولا جدال .. فما أظن فى قولها ذلك شيئا غير منتظر يسبب لى هذا الهناء العجيب ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن ألتمس لنفسى بعض العذر ، لأنى إذا حاولت تحليل مشاعرى وقتذاك وجدت أن قولها وطلبها كان أكثر شىء أتلهف عليه وأتمناه .. فلشد ما كنت أخشى أن يكون حديث أمها قد أثر فيها ، وأنها نوت أن تتبع نصيحتها ، فتصدنى — على حد قول أمها — برفق !

ولقد قلت من قبل إنى كنت أدهش جدا من تلك السمعة التى اشتهرت بها بين المدرسين والطلبة .. وهى سمعة النباهة .. وقلت إنى كنت واثقا تمام الثقة من أنى مخلوق غبى أو على الأقل .. غبى فى بعض الأحيان .. واستشهدت على ذلك بشهادة والدتى وبالفصول الباردة التى كنت كثيرا ما أفعلها معها .

ولكن الفصل الذى قمت به بعد ذلك .. فاق كل فصولى السابقة .. ودلل حقا .. على أنى مخلوق لا يمكن أن يتمتع بذرّة من الذكاء .

لقد تصرفت فى حكاية الغاب ، وقد أضفت إلى غباوتى الطبيعية المتأصلة غباوة العشاق الطارئة ، وحمقهم العجيب .

إن السيدة طلبت منى حزمة غاب لتغطى بها السقيفة ، والواقع أن السقيفة لم تكن تحتاج بحال من الأحوال إلى أكثر من حزمة أى خمسين عودا .

ولكنى كنت أشعر أنى أذنبت بغيابى عنها هذين اليومين وبتركى إياها تصلح العشة وحدها وتتعب نفسها .. ولهذا صممت على أن أكفر عن ذنبى .

بأية وسيلة ؟

بأن أحضر لها غاب البلدة كله .

وكان الغاب ينتشر متكاثفا على طول امتداد الترعة المجاورة ، وفى تلك الليلة لم أذق النوم إلا لماما ، واستيقظت والفجر لم يؤذن له بعد ، وتناولت فأسا كنت قد جهزتها فى اليوم السابق ، وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة إلى حافة الترعة .. وبدأت فى قطع الغاب بعزم كالحديد .

هذه هى المثابرة والصبر والجد .

أقطعت كثيرا ؟

لقد جردت حافة الترعة على طول امتداد البلدة مما بها من غاب .

لم أذهب إلى المدرسة فى ذلك اليوم ، وظللت أعمل فى قطع الغاب حتى انتهى النهار ، ووجدت كوم الغاب قد ارتفع أمامى أشبه بالهرم الأكبر .. ونظرت إليه بإعجاب شديد ، وتملكنى شعور بالغبطة والرضا ، وإحساس بأنى قد أديت واجبا حيويا .

واسترحت برهة .. ثم ذهبت إلى البيت لكى أرى لوالدتى وجهى ولكى أطمئنها على بقائى حيا .. ثم سرعان ما تسللت من الدار لأتمم بقية العملية ، وأنقل الغاب إلى دارها .

وبدأت عملية النقل فى صبر واحتمال وسكون .. وكان الظلام قد سقط .. وحفيف الغاب ووقع أقدامى يشتركان فى عمل لحن متكرر أشبه بألحان « الفعلة » من أهل الصعيد ، الذين يعملون فى خلط الخرسانة أو فى حفر الطرق .

وأخيرا انتهيت من نقل الغاب .. وملأت به أرجاء الحديقة وممراتها حتى لم يبق بها موطئ لقدم .. دون أن يحس أحد بما فعلت .

وعدت إلى البيت قرير العين .. راضى النفس .. وفى الصباح المبكر .. كنت أقصد إلى دارها لأرى وقع المعجزة التى صنعتها ، ولأتلقى أجرى من الشكر والمديح .

ولاحت لى الحديقة ، وقد أخذت فى الاقتراب منها ، وبدا الغاب أكواما متراصة حول الحديقة بطريقة أدهشتنى أنا نفسى .. وعجبت كيف استطعت وحدى أن أجمع كل هذه الكمية الهائلة .

ودخلت الحديقة ، وقبل أن أخطو فيها خطوة واحدة وصل إلى سمعى صوت مناقشة بين صوتين كنت أعرف صاحبيهما خير معرفة .. الأول صوتها الذى لا أخطئه من آلاف الأصوات .. والثانى صوت زوجها .. مدرسى أستاذ التاريخ .

سمعته يقول فى دهش ممزوج بضيق وغضب :

ـــ ما هذا كله .. أتنوين التجارة فى الغاب ؟

وسمعتها تجيب فى لهجة هادئة مشوبة بالاعتذار :

ـــ إنى ما قصدت أن يحضر كل هذه الأكوام .. كل ما طلبته من هذا الأبله حزمة صغيرة لأضعها فوق عشة الدجاج ، ولكنى لم أكن أظن أنه « حمار » إلى هذا الحد .

ووقعت كلماتها « حمار » و« أبله » فى أذنى وقع المطارق.لقد كانت المرة الأولى التى أسمعها تسب أحدا أو تزدرى إنسانا .

وتزدرى من ؟. تزدريني أنا .

وفى أى وقت ؟ فى الوقت الذى ظننت فيه أنى صاحب معجزات .

فى الوقت الذى جئت أستجدى كلمة شكر بعد ذلك المجهود المضنى والعمل الشاق المتواصل .

ووصل إلىّ صوت زوجها يقول :

ــ إن الخطأ خطؤك .. فما كان يجب عليك أن تكلفيه بمثل هذه المهمة .. كان من الأفضل أن تطلبى من البستانى أن يحضرها لك .. لقد كدت أوشك أن ألفت نظرك إلى هذا الأمر .. إنك تعطلين الصبى بهذه الأعمال التى يقوم بها فى الحديقة .. إن لديه دروسه واستذكاره .

ــ إنه هو الذى يتطوع بالعمل .. وأنا لا أستطيع بالطبع طرده .

ــ إذا فدعى أمره لى .

ولم أجسر على أن أبقى لاستماع بقية الحديث .. فقد استرقت الخطى إلى الخارج .. وعدت إلى الدار مطأطئ الرأس ، محنى الهامة أجرّ ساقى جرا .. كأنى مريض محموم أو كأنى جريح عائد من معمعة عقب هزيمة منكرة .

* * *

أنا .. حمار .. أبله ..؟

أهذا هو رأيها فىّ ؟.. ألا أفضل لديها من ذلك ؟

ولكن هل أنا أفضل .. فعلا .. مما قالته ؟

لا أظن .. إنى فعلا .. حمار .. أبله غبى .

ولقد كان هذا أكثر ما حزّ فى نفسى، وأوجع قلبى . فلا أظن هناك ألم للإنسان من أن يسمع شتائم ونقائص، موجودة فيه فعلا ، ولا يستطيع أن ينكرها .

أى فضل فىّ ؟. وأى ميزة بى ؟

أى شىء يدعوها هى ، أو غيرها ، إلى الإعجاب بى ؟

وذكرت تهمة النباهة التى ألصقها بى .. فى وقت ما ، مدرسا العربية

والرسم ، وذكرت قولهما عن الموهبة الكامنة التى تحتاج إلى إنماء وصقل ، وتحتاج إلى جهد ومثابرة ، وصبر وتركيز ، وتفهم مبادئ ، ودراسة أصول .

أتراهما كانا يصدقان القول ، وكانا يعنيانه ؟

أترانى حقا مخلوقا ذا موهبة ، وأننى بالجد والمثابرة يمكننى أن أصبح إنسانا ممتازا .. أو كما يقولون : نابغة عبقريا ؟

لا أظن .. فأنا نفسى لا أشعر أن بى شيئا غير عادى .

ولكن يجب أن يكون لدىّ موهبة .. لقد بت فى أشد الحاجة .. بعد هذه التهمة منها بالبلادة والغباء .. إلى أن أثبت أنى عكس ذلك .

لم يكن يهمنى من قبل أن أكون ذا ميزة ، وكنت أبخل بالجهد والمثابرة على شىء لا أريده .

أما الآن فما أشد حاجتى إليه .

ليتنى فقط .. أكون ذا موهبة .

آه لو صدق قول مدرس العربية .

وهكذا بدأت أتحفز للنضال .. فى معركة الامتياز والنبوغ والعبقرية ، وذهبت فى الصباح المبكر لأسأل مدرس العربية أن يضمنى إلى الجمعية الأدبية وإلى هيئة تحرير المجلة ، ولأسأل مدرس الرسم أن يلحقنى بجمعية الرسم .

ولكن الاثنين رفضا مطلبى ، وأنبآنى أنى مخلوق مكسال متراخ لا فائدة ترتجى منى ، وأنهما كانا مخدوعين فىّ .

وأحسست بخذلان شديد .

أهكذا لا أكاد أبدأ النضال .. حتى أهزم من أول مراحله وأطرد شر طردة من أرض المعركة ؟ ومع ذلك فلم يصبنى اليأس ، لقد كنت مصمما على أن أصبح شيئا . غير ذلك الحمار الغبى الأبله ، مصمما على أن يكون لى ما أعتز به وأفخر .

وبدأت الجد والمثابرة والنضال ، « من منازلهم » دون حاجة بى إلى الدخول

فى تلك الجمعيات التى رفضوا قبولى بها بعد أن كانوا يلحون علىّ فى دخولها .

وكتبت نشيد المدرسة ، وكانت المرة الأولى التى أحاول أن أقرض فيها الشعر ، ولم يكن يخطر لى ببال أن أجلس لأقضى الساعات الطوال مجهدا ذهنى فى نظم الكلمات ورص القوافى . ولم أكن شاعرا بالفطرة ، ولكنها كانت الإرادة ، وكان الجلد ، وكانت الرغبة فى أن أكون إنسانا ممتازا .

وأتممت النشيد ، وتقدمت به ، وما زال نشيد المدرسة الذى تهتف به حناجر الطلبة فى كل حفل وترحال .. وانهمكت فى نظم الشعر والأزجال ، وفاضت نفسى المرهفة اللهفى المحرومة بالحنين بسيل فى قصائد ومواويل تذوب رقة وتقطر جوى .

وما زلت أذكر موالا نظمته فى ساعة سهد فى بهمة الليل وكنت لا أفتأ أردده لنفسى فى لحن حزين وأنا أتقلب على المرقد الجافى :

يا ساكن القلب طيفك مر فى بالى — وراح وسابنى عليل حبه بقى وبالى
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالى — وهو ساهى وسالى ما افتكر فيّه
ينسى عهود الهوى ويهجر ولا يبالى

وأخذت فى الكتابة ، وفى عشية وضحاها كنت قد كتبت معظم ما فى مجلة المدرسة ، دون أن أكون فى هيئة تحريرها ، حتى جعلتهم أمام أمر واقع واضطروا إلى أن يخلقوا لى منصبا جديدا هو نائب رئيس التحرير .. بعد أن رأونى فى كل شيء فى المجلة .

وانهمكت فى الرسم وملأت لوحاتى جدران المدرسة ، واحتلت رسومى لوحة الإعلانات التى يعلن فيها عن المباريات الرياضية .. بعد أن ابتكرت طريقة جديدة فى إخراجها والإعلان عنها .

وفى ذلك العام نشرت لى ، وأنا تلميذ ، أول قصة فى إحدى المجلات الكبرى ، ورأيت اسمى يوضع جنبا إلى جنب بجوار كبار الكتاب .

وهكذا سرت مندفعا فى الطريق .. طريق ما يسمونه بالنبوغ والعبقرية

لا لشيء إلا لأثبت لها .. أنى غير حمار ولا أبله ولا غبى .

ومع ذلك فلا أكاد أجلس لأفكر الآن .. حتى أجد نفسى حمارا كبيرا . وليس أدل على ذلك من أنى قد أجهدت نفسى كل ذلك الجهد من أجل مخلوقة سرعان ما اختفت من محيط حياتى وخرجت من نطاق تفكيرى .

أجل .. لقد تخرجت من المدرسة ونقلت من البلدة ، ونسيتها تماما ، ومع ذلك فما زلت حتى الآن أثابر وأجد وأتعب نفسى .

لم ؟

ليقولوا عنى إنى نابغة عبقرى ؟

يا لى من حمار .. أبله .

ما أشبه مثابرتى على نقل الغاب بمثابرتى على السير فى طريق العبقرية والنبوغ .

غباوة .. فى غباوة .

* * *

وأعادنى من شرودى .. دوى تصفيق لخطيب انتهى من خطبته ، وسمعت حضرة الناظر يسألنى النهوض لمشاهدة التمثيل .

وسرت وإياه وبقية المدعوين إلى الصالة الكبيرة القائمة بين الفصول حيث أقيم المسرح وصفت المقاعد وتقدمت إلى الصفوف الأولى وأبصرت بعض مقاعدها قد احتلت ببعض السيدات ، ووجدت الناظر يتقدم بى إلى سيدة عجوز قد وخط الشيب رأسها ويقدم كل منا إلى الآخر قائلا : (الأستاذ فلان) .. (زوجتى) .

ونهضت السيدة فشدت على يدى ببشاشة وترحاب قائلة فى صوت رقيق ودود :

ـــ إنى أذكرك جيدا وأنت ما زلت صبيا صغيرا ، وأذكر كيف جمعت لى غاب الترعة بأكمله .. ترى أما زلت تذكرنى ؟

وصمت برهة وأحسست بقلبى ينبض نبضات أشبه بصحوة محتضر .

وسرعان ما عاد إلى صمته وجموده .

ولم أدر إلا وأنا أقول فيما يشبه الهمس :

ـ أذكر فقط .. لقد كنت السبب فى كل ما حدث لى سامحك الله .

ولم تجب العجوز .. فلا أظنها قد فهمت ما أعنى .. أو من يدرى .. ربما قد فهمت .

* * *

ذكريات عصفت بى

لا تثر لى ذكريـــــــاتى إنها
شيبتنـــى شيـــبت حتـــى صبايـــا
ذكريات عصفت بى ، ذكريـــات
لم تدع من أجلى إلا بقايـــــــا
ذكريـــــات رسفت فى أدمعـــى
وشجـــونى وتمشت فى دمايـــا
آه منـــى أنـــا لم أدرك مداهـــا
آه منها هى لم تدرك مدايــــــنا
حطمتنـــى مثلمـــا حطـــمتها
فهـــى منـــى وأنـــا منها شظايـــا
كامل الشناوى ــ محمد عبد الوهاب

والليل إذا سجى .. والطير إذا شدا .. والغصن إذا ترنح . والنسيم إذا ترنم . والسماء والكواكب.والنجم الثاقب . والذى نفسى ونفسك بيده ، وحياتك عندى .. عندما كانت لحياتك قيمة .. لقد سلوتك وشفيت من حبك .

سلوتك يا هاجرة .. وخلعت عنى قيدى .. وفككت حصارك .. لقد استبدلت بلهفة المشوق ازدراء المعرض ، وبطاعة الدليل سورة الباطش . وبت فى غنى عن متاعك الزائل السريع ، وعذابك الدائم المقيم . وما عدت بعد .. سخرة لعبثك ، وعبدا لفتنتك .

إنى لأجلس فى سكون الليل فأحتضن عودى .. وتجرى أصابعى على أوتاره .. فإذا به حزين الصوت ، مبحوح الترنم ، وإذا برناته تسرى كالأنين ..

وإذا به يعيننى على البكاء لا العزاء .. ويزفر لحنا كأنه النواح والعويل والرثاء . أصدع بالغناء .. وماذا أملك يا أختاه سواه ؟.. إنى لأفرح فأغنى .. وأحزن فأغنى .. كل خلجة من خلجات نفسى تبعثنى على الغناء .. وتدفعنى إلى الترنم ، كلما هاج بى الشوق أو الشجو .. وكلما هزتنى الفرحة أو اللوعة هتفت بها ألحانا وأنغاما .

يا منية النفس فى زمن غبر .. يا توأم الروح فى عهد باد .. لا عليك أبكى ، ولا إليك أحن . إنما الحنين إلى الزمن الغابر ، والبكاء على المتعة المنصرمة .. واللذة البائدة .

لهفى عليك ، ولهفى علىّ .. لهفى عليك وقد جزيتك سوءا بسوء .. وشرا بشر .. ورددت إليك اللطمة مضاعفة .. فحطمت بها أمانيك وخيبت آمالك .. وتركتك تتقلبين على جمر الغضب والغيظ والكمد .

ولهفى علىّ وقد لفظتك وأنت روحى .. وفقدتك وأنت ألزم إلىّ من الماء والهواء والغذاء ! وقهرتك وأنا الخاسر ، وبطشت بك وأنا المهيض .. وأذللتك وأنا أشد منك إحساسا بذل الهزيمة ومرارة الخسران .

ولكن لم يكن مما فعلت بد . لقد منحتنى لحظات متعة ثم استرددتها مضاعفة .. ولو وهبتنيها ثانية لعدت فاسترددتها . وهكذا كل متعة منك سريعة الزوال .. عاجلة المسترد .. فالغدر شيمتك .. والخيانة ديدنك .. أفلم يكن من الخير لى وأنت كذلك أن أستأصلك من نفسى وأنتزع من قلبى جذورك .. وهكذا فعلت .. اقتلعتك من نفسى شر اقتلاع ولست بمنكر ما لقيت من آلام فى اقتلاعك .

لقد بت أشبه بقطعة أرض أظلتها شجرة ثم هبت عليها الريح فاقتلعتها من جذورها وتركت مكانها حفرة مقفرة موحشة .. يلفحها الهجير ويحرقها القيظ !

إنى لأمسك بالعود وأصدح بالغناء .. وبرغمى يا أختاه أجد الأغنية المحبوبة

قد اتخذت طريقها إلى أوتار العود وإلى شفتى .. ويصل اللحن إلى أذنى وكأنى لست منشده ، بل كأنه يصل إلىّ من بعيد ، من أغوار سحيقة ، من الأيام الخالية والزمن الغابر ، والذكريات البائدة .

ويسرى الصوت الهامس فى هبات النسيم هاتفا :

زعموا حبى يا قلب خطايا   لم يطهرها من الإثم بكايا

وأحس من الصوت برجفة فى القلب . لست أدرى أمن طرب أم صبابة ؟ وتنبعث من صدرى زفرة حارة ملؤها اللوم للقلب الخافق المرتجف . ويسود الصمت لحظة ثم أعود فأهتف على رنات العود .. وخفقات القلب :

حسبنا ما كان فاهدأ ها هنا   فى ضلوعى واحتبس خلف الحنايا

ويشرد بى الذهن إلى الماضى البعيد نابشا فى أجداثه .. وأحاول أن أعيد الذهن المنطلق وأوثقه إلىّ .. وأرجعه عن عبثه بين الأطلال الدارسة والدمن العافية .. وأهتف بالذهن الشارد كما هتفت بالقلب الخفاق :

لا تثر لى ذكرياتى إنها   شيبتنى شيبت حتى صبايا

إن بها من المرارة أضعاف ما بها من الحلاوة .. لقد كانت لى فيها متعة فبادت .. ولو عادت لبادت مرة أخرى !

ذكريات عصفت بى ، ذكريات   لم تدع من أجلى إلا بقايا
ذكريات رسفت فى أدمعى   وشجونى وتمشت فى دمايا

أجل .. فى دمايا .. أيتها النائية .. كل ما بك وما حولك قد تمشى فى دمايا بعد أن لقيتك أول مرة .. أتذكرينها ؟

كان ذلك عندما التقينا فى ذلك الحفل الخاص الذى كنت قد دعيت للغناء فيه .. وكان الحفل لا يضم إلا خاصة الأصدقاء .. وكنت أكاد أعرف كل الوجوه الحاضرة إلا وجها واحدا هو وجهك أنت !

ولكن .. أحقا كان وجهك غريبا عنى ..؟. أحقا أنى لم أكن أعرفك من قبل ؟ على النقيض .. لقد أظهر وجهك كل ما حوله غريبا .. وبدا وحده

القريب الحبيب الذى أستطيع أن آمن إليه .. لم يكن وجهك غريبا .. فقد أقسمت بينى وبين نفسى أنى قد رأيتك من قبل فى مكان ما قد يكون فى الأحلام أو فى الأوهام .. وهذه البسمة الحلوة ، والوجه المشرق ، والأنف الدقيق ، والزهرة فى المفرق لم تكن غريبة عنى .. هذه التفاصيل أذكرها تماما .

وكنت تنظرين إلىّ وأنا أترنم وفى عينيك نظرة حالمة .. وأطلت فى الغناء وأخذت أكرر وأعيد .. وأنت رانية فى نشوة .. ووددت لو لم أنته حتى أظل مستمتعا بدفء نظراتك .

وانتهيت من الغناء .. وأحسست بنظرتك المعجبة تجزينى خير الجزاء .

وتعرفت بك وبزوجك !

وأخذت وقتذاك .. عندما علمت أن لك زوجا .. وشعرت بكثير من خذلان وضيق .. وأسف .. فقد استطاع الذهن خلال الفترة القصيرة التى كنت ترنين إلىّ بنظراتك الحالمة اللهفى خلال الغناء ، أن يهيئ لى معك مشروع حب ، وأن يعقد من طرف واحد ميثاق غرام .. وأن يزج بك بقوة وبسرعة فى محيط حياتى ، فيجعل منك — على قصر عهدى برؤيتك — شيئا حيويا هاما تتعلق به سعادتى .

ولم أجد بدا — بعد أن عرفت أنك متزوجة — من أن أتراجع ، وأن آمر الذهن بهدم مشروع حبه الجديد .. ولم أحاول أن أبذل أى جهد فى التقرّب إليك .

ولكنك كنت المقبلة المتقرّبة ، والإنسان قد يكون من قوة الخلق والإرادة بحيث يحرم على نفسه متعة محرّمة ، يتلهف عليها ، بالتباعد عنها .. ولكن عندما تقبل عليه المتعة فتمسك بتلابيبه وتأخذ بخناقه ، فلا أظن المقاومة تصبح شيئا سهلا .. ولا أظن الإرادة تجدى نفعا .

وحاشاى أن أتهمك بأنك أمسكت بتلابيبى أو ضيقت علىّ الخناق .. لأن مقاومتى كانت أضعف من أن توصلك إلى هذا الحد .. إذ ما كدت أحس إقبالك

وتقرّبك ولهفتك وإعجابك .. حتى تركت نفسى تتردى فى حبك وتتخبط فى هواك .. دون أن أفكر فيما إذا كنت زوجة أو غير زوجة . وغير آبه لما يمكن أن يؤدى إليه حبنا .. ولا مُلقٍ بالا إلى ما يمكن أن يصادفنا من عقبات .

وهذه الأوضاع الأرضية لا يفكر فيها المحبون الذين يحلقون بأذهانهم الشاردة فى سماوات الأوهام والأحلام . إنهم يعتبرون كل شىء ما خلا الحب باطل .. ويرون أن كل العقبات يجب أن تفسح الطريق للحب .. وأن كل الشرائع والتقاليد يجب أن تطأطئ هامتها للحب .. وأن يكون بها من المرونة ما يتسع لمخالفات الحب واستثناءاته .

وهكذا اندفعنا معا فى حب جارف .. بدأناه تلك الليلة المشهودة .. ووثقت الأيام عراه وشدت رباطه .. ولم أفتقدك مرة واحدة فى الحفلات التى كنت أغنى فيها .. فقد كنت أجد وجهك يتطلع إلىّ دائما بين الوجوه وكنت أجد فيه هدايتى ونبراسى .

ولا أنكر فضلك علىّ .. فقد أضحيت لى مهبط وحى .. وكنت ملهمتى فى معظم ألحانى التى رفعت ذكرى وزادت شهرتى .

كانت ألحان الحب التى وضعتها قبل أن أحبك جوفاء خاوية . فلما أحببتك جاشت فىّ ألحان الروح وفاضت بالحياة . كنت أحس فى كل لحن أنى أناجيك به .. وكنت أستمد أنغامى من تردد أنفاسك .. وبحة همستك ورنة ضحكتك . كانت تلك سلالمى الموسيقية .. ووحيى المنزل .

رب لحن يا نائية سرقته من هبة نسيم خلتها تحمل فى الليل أنفاسك .. ورب نغم بعثه فى نفسى حفيف أوراق خلته حفيف ثيابك ، أو طرق هادئ خلته فى دجى الليل وقع خطاك .

كنت أصورك لنفسى أكثر مما يمكن أن تتصورى أنت نفسك مهما بلغ بك الكبر والغرور .. كنت أفهمك على أنك كائن من غير البشر .

وكان لا بد لنا أن نفعل شيئا .. فما كنا نستطيع أن نكتم ما بنا إلى الأبد وأن

نظل هكذا متسترين على حبنا ، دون أن تكون لنا حرية الاستمتاع به كغيرنا من البشر .

وبدا لنا أن من العبث تجنب الفضيحة ، وأن أى إجراء سنحاول اتباعه سيصيب سمعتنا ويشهر بنا بين الناس ، وأخيرا لم نجد بدأ من التفكير فى الفرار والنزوح عن هذا البلد .. وأن نرحل بعيدا .. إلى حيث يستقر بنا المقام فى لبنان أو فى قطر آخر نستقر فيه .. لنبدأ معا حياة جديدة لا ينغص علينا فيها رقيب ولا شريك .

وبدأنا نرسم خطتنا الجنونية .. لقد كنا عشاقا ، وليس أحب إلى العشاق من امتطاء صهوة الأهواء الجامحة .. وأنت مخلوقة خيالية كثيرة التعلق بأوهام الحب وخيالاته .. وأنا فنان دائم التحليق بذهنى فى سماء الألحان لا أكاد أحس الواقع إلا لماما .

وجاءت خطتنا فى الفرار ، نموذجا للإمعان فى الخيال والوهم وجنون الحب . خطة لا تزيد كثيرا عما يدبره العشاق فى الأقاصيص والروايات .. فكان علينا أن نلتقى فى سكون الليل حيث تتسللين من دارك بعد أن يأوى زوجك إلى مضجعه وتسيرين إلى نهاية الطريق حتى تبلغى المقعد الكائن فى طرف المنتزه حيث أنتظرك بعربتى ثم نبدأ رحلتنا معا إلى غير عودة .

وحددنا لفرارنا يوما معينا ، ورتبت كل أمورى على الرحيل فى ذلك اليوم .. ولكن القدر لم يكن قد رتَّب أموره معى .. ففى اليوم السابق لليوم المحدد أحسست بالتهاب فى الحنجرة وارتفاع فى الحرارة واضطرنى المرض إلى الرقاد فى الفراش .

ورغم ما أصابنى من ضيق يومذاك .. فقد حاولت أن أخفف عن نفسى بأن المرض عارض طارئ سرعان ما يزول وأننا نستطيع أن نصبر بضعة أيام حتى أبل من مرضى ، واتصلت بك لأنبئك بذلك .

ولكن المرض لم يكن عارضا طارئا .. بل كان حدثا أصيلا ، وما كان شيئا

سريع الزوال بل كان ضيفا دائم المكوث طويل الإقامة .

لم يكن المرض فقط مهددا بالحيلولة دون فرارنا .. بل كان أشد من ذلك خطورة وأقسى وقعا .. لقد كان مهددا بفقدى أعز ما أملك — بعدك — ألا وهو صوتى . ورقدت على الفراش أتململ والأطباء يتشاورون من حولى ثم أقبلوا علىّ فى النهاية يطمئنونى بقولهم : إنى بخير ، وأنه ليست هناك أية خطورة على حياتى .. ولكن حنجرتى لن تعود إلى ما كانت عليه ، ولن أستطيع معاودة الغناء ، إلا إذا أجريت لى عملية غير مضمونة النجاح .

وأصابتنى من قولهم صدمة عنيفة ، وتملكنى حزن شديد ، فقد كنت أحس أن حنجرتى هى سر قوتى ، وأن حياتى لم تعد لها قيمة .. وأنى بت كشمشون بعد أن قص شعره .

ومع ذلك فلم يعد هناك بد من الاستسلام لقضاء الله . ولم أحاول أن أقدم على إجراء العملية الخطرة ، لأنى كنت أرغب فى الاحتفاظ بحياتى لأجل مخلوق واحد هو أنت .

ومرت بى الأيام وأنا راقد فى الفراش أستحث الشفاء وأتعجل النهوض وأتلهف على اليوم الذى نستطيع فيه أن ننفذ خطتنا فى الفرار .

ولم يكن لى من عزاء فى رقدتى سوى زيارتك التى كنت تمنحينها لى خفية كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .. ولكنى أحسست أن زياراتك لى قد بدأت تقل .. وأنك قد بدأت تعتذرين بتضييق زوجك عليك حتى حل الوقت الذى رضخت فيه لإرادة زوجك ، وانقطعت زيارتك تماما .

واشتد بى الحنين وعصفت بى اللوعة ، ولكنى مع ذلك أخذت ألتمس لك الأعذار .. معللا النفس بأنك لا بد قد أكرهت على هذه القطيعة ، وأننى لا بد أن أشفى عاجلا ثم أفر وإياك وأنقذك مما أنت فيه .

وفجأة حدث ما أذهلنى وأفعمنى دهشا وعجبا .

لقد فوجئت ذات يوم برسالة منك فى البريد تنبئنى بأنك لا تطيقين بعدى وأنك

قد بحثت الأمر جيدا ، وأنك موافقة على مطلبى وأنك ستلقيننى اليوم عند المقعد الذى فى نهاية المتنزه فى الساعة العاشرة لكى نهرب معا .

وأحسست برأسي يدور . ولم أفهم ماذا دفعك إلى كتابة الخطاب ، وأى أمر هذا الذى بحثته ، وأى مطلب هذا الذى وافقتنى عليه .. وكيف تطلبين منى لقاءك والفرار بك وأنت تعلمين جيدا أنى لا أستطيع مغادرة الفراش .. ثم ما الذى دفعك فجأة إلى الكتابة إلىّ بعد أن انقطعت زيارتك عنى طوال هذه المدة !

وأعدت قراءة الرسالة مثنى وثلاث .. ومرة واحدة وفى مثل لمح البرق تكشف لى الأمر .

كان الظرف الذى وضعت به الرسالة معنونا باسمى .. ولكن الخطاب من الداخل لم يكن موجها إلىّ .. أو على الأقل كان بالاسم تحريف .. إن اسمى محمد ، ولكن الخطاب كان موجها إلى « عزيزى محمود » .

إنى لم ألحظ الخطأ فى أول الأمر .. فلما لحظته ظننتها زلة قلم . رغم أنك لم تخطئ مرة واحدة من قبل . ولكننى بمعاودة القراءة والتفكير دفع الشيطان فى ذهنى بالحقيقة وملأ نفسى بالوساوس والشكوك .

وتذكرت محمود .. الكاتب المعروف .. الذى كثيرا ما كنت تمتدحينه أمامى .. وكنت تقولين إنك تعشقين كتابته ، كما تعشقين أنغامى .. وكنت دائم الغيرة منه ، شديد الكره له .

أجل ! لقد كنت أحس بأنه غريمى فى حبك ، ومنافسى فى هواك .

كان يخيل إلىّ دائما أن قلبك بيننا ميدان قتال أنا أغزوه بريشتى وهو يغزوه بقلمه .

ولم أكن أشك فى أنى فى ميدان هواك الفائز السباق ، الصائل الجائل .. وأنى استطعت وحدى الظفر بقلبك ، وطرده منه — إن كان قد احتله فى يوم ما — شر طردة وأنى رددت قلمه إلى غمده ، وهزمته شر هزيمة .

أجل يا أختاه .

أجل .. يا عاشقة العبقرية ومحبة النبوغ .. لقد هجرتنى عندما بت مخلوقا عاديا ، لا أملك من وسائل العبقرية أكثر من أى إنسان آخر . لم يعد لى من ميزة ولا فضل .. لقد كان يستهويك غنائى ، فلما عجزت عنه .. لم يعد لى فى نفسك قيمة .. ووليت عنى إلى مصدر آخر من مصادر النبوغ . مصدر لم ينضب معينه ولا جف نبعه .

وأعادت الأيام نفسها .. وبينما كنت أرقد طريح الفراش كنت تقومين بدورك مع العبقرى الآخر . وانتهى الأمر بك معه .. إلى ما أوشك أن ينتهى معى ..

وأغلب ظنى أنه قد سألك الفرار معه .. فالفنانون ، يا فاتنة ، يتساوون فى الجنون والبلاهة .. وسألته أنت أن يعطيك فرصة للتفكير .. ثم أرسلت إليه رسالتك السابقة ويعلم الله كيف وصلت إلىّ وكيف أخطأت العنوان ..!

ولكن أغلب الظن أنك قد كتبت إلىّ رسالة تعلنينى فيها بانقطاع الصلة بيننا . وقد وضعت رسالتى فى ظرفه ورسالته فى ظرفى ، وأن كلا منا قد تسلم رسالة الآخر .

وهكذا يا هاجرة .. عبث بك القدر . فأرسلت إليه تقطعين صلتك به .. وأرسلت إلىّ تسألينني الفرار معك .

وكان أول ما فعلت هو أن استدعيت الطبيب وأصررت على أن يجرى لى العملية الجراحية مهما بلغت خطورتها .

ولم يمض أسبوع .. حتى كانت العملية قد نجحت وشفيت حنجرتى تماما .. واستردت موهبتى الأولى .

وعدت إلىّ مرة أخرى مثبتة صحة كل ما سبق أن استنتجته من خطابك .. فقد أقبلت على ذليلة كسيرة .. معتذرة عن خطابك الذى قطعت فيه صلتك بى ، وقلت إنك كنت لا تودين أن تكونى عبئا علىّ ، وأنك وددت أن تخلينى من

عهد قد يثقل عليّ ، وهكذا عرفتني بالخطاب الذى كان يجب أن يأتى إلىّ والذى تسلمه خصمى الآخر .. وكانت نتيجته أنه لم يحضر إليك فى الموعد المحدد وهجرك إلى غير عودة .. ولم أنبئك بشيء عن حقيقة ما وقع ، بل أظهرت لك صفحي عنك ، وسألتك عما إذا كنت على عهدك القديم وأنك موافقة على الفرار معى .

وفى اليوم التالى وصلتنى رسالة منك .. لا تكاد تفترق عن الأولى فى شيء .. توافقين فيها على الرحيل معي .. وتحددين بنفسك الموعد والمكان ، وأدركت أن فى هذه المرة لم يحدث خطأ .. وأن الطرف الآخر قد وصلته رسالة ثانية بقطع العلاقة معه .

وفى الليلة الموعودة ذهبت إلى مكان اللقاء .. لم أذهب فى الموعد بالضبط .. بل ذهبت قبله بلحظة بسيطة ، ووسط السكون الشامل ، وتحت ضوء المصباح ، ووقفت أمام المقعد الذى اتفقنا على أن نلتقى عنده .. والذى تعودنا أن نجلس عليه معا ، ولم أجلس لأنتظرك ، بل وضعت مكانى رسالتين : الرسالة الأولى والرسالة الثانية .. ثم ركبت سيارتى وقررت أنى أرحل وحيدا .. لا رفيق لى سوى « عودي » الحزين ، وصوتى الملتاع .. الذى يهتف فى سكون الليل :

آه منى أنا لم أدرك مداها   آه منها هى لم تدرك مدايا
حطمتنى مثلما حطمتها   فهى منى وأنا منها شظايا

* * *

آه لو كنت معى

آه لو كنت معى نختال عبره
بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره
حلم ليل من ليالى كليوباتره
أين من عينى هاتيك المجالى
يا عروس البحر يا حلم الخيال

(على محمود طه ــ محمد عبد الوهاب)

أكره أن أنساك يا حلوة الروح .. فإنى بغير ذكراك يابس القلب جامد الحس كأنى حطبة أو حجر .

أبعد كل هذه السنين التى ولَّت والعمر الذى انقضى .. وبعد كل هذا الزمن خلته قد طواك .. لا أكاد أخلو إلى نفسى فى بهمة الليل وسكونه حتى يساورنى طيفك الرقيق ، فأكاد أشتَمّ من النسيم عبقك العطر ، وأكاد أسمع من حفيف الورق همسك الحنون وهتافك العذب « آه لو كنت معى » .

أنا معك دائما .. معك فى كل حين .. وفى كل زمان ومكان .. على الربى وفى الرياض ، وبين الأمواج وفوق الرمال .. بين الزهور وبين القبور .. فى الحياة وفى الممات .

كانت أغنيتك المفضلة عندك .. وكنت لا تملين من ترديدها .. وكنت لا أمل من سماعها .

كانت هى بداية معرفتى بك .. وكنت أجلس وقتذاك فى الشرفة الصغيرة المطلة على الحديقة الخلفية التى تفصل بين دارينا ، وكانت الساعة قد قاربت

العاشرة مساء .. والليل سكون ، وهبوب النسيم خفق وحنون .. وقد اضطجعت على مقعد وأسندت قدمى على حافة الشرفة واتكأت برأسى على مسند المقعد وأخذت أرقب السحاب الذائب الهائم على وجه السماء .

ووصل إلى سمعى صوت رقيق حنون .. يشدو بالمقطع الأخير من أغنية الجندول .. ويردد فى عذوبة « آه لو كنت معى » .

ولا أظنك كنت — وأنت ترددين أغنيتك ببساطة فى تلك الأمسية — تتصورين مبلغ أثرها فى نفس ذلك المخلوق القابع فى الظلمة على قيد خطوات من نافذة حجرتك .. لقد أطلقتها رمية من غير رامٍ ، وكنت بإحساسى المرهف وجلستى الشاعرية خير هدف أعد لاستقبال رميتك .. فتلقيتها « وكتمت السهم فى كبدى » ورحت من سهمك أترنح نشوان ثملا .

وفى الليلة التالية كنت أتخذ مجلسى بنفس الطريقة وفى نفس الوقت ، وسرى إلىّ مع النسيم صوتك كأنه السحر .

وتكرر ذلك فى كل ليلة .. فكأننا على موعد ، وبدأ تفكيرى يتركز فى تلك اللحظة من الليل حتى أضحت أغنيتك وصوتك محور اهتمامى ومركز حياتى .

وقد يكون من العجب ألا أحاول أن أطمع منك فى أكثر من صوت مجهول يسرى إلىّ فى جنح الليل .. وألا أحاول أن أراك أو أسأل عنك ، ولكنى فى الواقع كنت راضيا مغتبطا ، فأنا إنسان خيالى حالم ، وكنت أصورك لنفسى فى صورة أبدع الفنان فى رسمها .. صورة تتناسب مع ذلك الصوت العذب والجو الساحر الذى يسرى فيه ، وكنت أذكر قصة قرأتها عن رجل عشق فى جوف الليل صوتا حنونا .. فلما التقى بصاحبة الصوت وجدها شوهاء ضريرة ، وكنت أجزع من تكرار القصة معى وأكره أن أراك بغير الصورة الساحرة التى كنت أتصورك بها .

وعاونتنى الظروف إلى حين ، فلم أر لك طيفا ولا شبحا . فقد كنت أتغيب عن الدار طول اليوم فلا أعود إلا بعد سقوط الظلام .. أما فى أيام العطلة فقد

كنت ألمح نوافذكم من خلال الشجر مغلقة .. وكان السكون الذى يسود داركم يجزم بأنكم تقضون اليوم خارجها .

أقول إن الظروف عاونتنى على القناعة بصوتك إلى حين ، فقد عدت ذات يوم إلى الدار قبل الغسق ، وجلست فى حجرتى أتسلى بتصفح إحدى المجلات عندما أفلتت منى نظرة مصادفة إلى ناحية داركم .. فإذا بى أجدك فى الشرفة المواجهة لحجرتى .

أجل .. وجدتك أنت .. أو وجدت ما تمنيت أن تكونيه . فقد كنت لا أعرف كيف تكونين .. ورحت أحدق فيك وأجزم لنفسى أنك لا بد أن تكونى صاحبة الصوت .

إن خيالى لم يخطئ .. فما كنت شوهاء ولا ضريرة ولا كسيحة . وما كان ذلك الصوت العذب ليخرج إلا من بين شفتيك الحلوتين المزمومتين فى رقة .

كانت نبرات صوتك كقسمات وجهك .. من نفس النوع الهادئ الناعم الذى يملأ النفس سكينة وراحة . وكنت أحس فيهما عمقا وإخلاصا يجعلانى أتمنى لو أقضى العمر فى سماعك والنظر إليك .

وزادت لهفتى عليك بعد أن رأيتك .. وأضحيت فى نفسى أكثر من صورة وهمية يجسدها الليل ويكسفها الصباح .. لم تعودى مجرد صوت ساحر ، بل أصبحت كائنة حلوة ملموسة أستطيع أن أبصرك وأتحسسك .

ولم أعد — كما كنت من قبل — أستبعد المسافة بين عملى بالقصر العينى وبين بيتى فى الروضة .. بل صرت أعود فى كل فرصة أستطيعها .. ولم أحاول أن أقضى لحظة فراغ ، منذ رأيتك ، خارج الدار .

واستطعت لطول التطلع إلى داركم ومراقبتى إياكم أن أحصى سكان الدار .. فوجدت عجوزين لم أشك فى أنهما أبوك وأمك .

وبدأ ينشأ بيننا نوع صامت من المعرفة والألفة .. ومنعنى حيائى أن أقدم على أكثر من سماع صوتك فى جنح الليل والتطلع إليك إذا ما جلست فى الشرفة فى النهار .

وكان يخيل لى أنى ألمح فى قسماتك سيماء شجن وأنك تبدين مهمومة محزونة .. أو على الأقل ليس لديك ما يفرحك ويطربك .. كأنك تسيرين فى الحياة بلا أمل ولا رجاء .

وحاولت مرة أن أشير لك بالتحية ولكنك تجاهلتنى . فصدمنى تجاهلك إياى فى مبدأ الأمر ، ولكنه زادنى رغبة فى أن أحدثك وأن أرفع عنك همك وأنبئك أننى أحبك .

وازددت إقبالا .. فازددت إعراضا . وقابلت ميلى إليك باستخفاف وإنكار .. وكان كل ما بيننا من كر وفر ، وإقبال وإدبار ، لا يعدو الحركات الصامتة من بعيد .

وأخيرا لقيتك وجها لوجه فى أحد معارض الصور بسراى المعرض .. ووجدتها فرصة العمر للحديث معك وصممت على ألا أدعها تفلت من يدى .

وحاولت تجاهلى فى أول الأمر . ولكننى كنت مصمما على أن أحدثك ، ولم تكن المسألة عسيرة علىّ .. ولا كانت تحتاج لكثير جرأة .. إذ لم يكن أسهل على من السير بجوارك .. وتتبعك أينما سرت ، وإبداء الملاحظات على الصور التى نشاهدها معا .

وتبادلنا بعض التعليقات العابرة ، ثم رأيتك تتجهين إلى الباب وتهمين بالخروج فتبعتك وأسرعت بإحضار عربتى ودعوتك لأوصلك إلى دارك .

ورفضت الركوب شاكرة .. ولكنى قلت فى لهجة مصممة أن لدىّ ما أو قوله لك ولا بد أن تركبى معى .

ولم يكن هناك مفر من الركوب .. تلافيا للمناقشة . واتخذت مقعدك بجوارى .. وسارت بنا العربة وعبرنا كوبرى الجلاء .. وبدلا من أن أتجه يمينا إلى كوبرى الملك الصالح ثم إلى الروضة اتجهت يسارا إلى كوبرى أبو العلا ثم إلى الزمالك حتى أطيل مدة جلوسك بجوارى .

وكنت تنظرين إلىّ بغضب مكبوت ودهشة مستسلمة .. وإن كنت أشك

أنك ـ إلى حد ما ـ راضية .

وطال بنا الصمت وأنا أشعر من جلستك بجوارى بنشوة عجيبة .. وأخيرا تساءلت فى صوت خافت :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أشياء كثيرة .

ـ أتعتقد أن هناك فائدة من قولها ؟

ـ طبعا .

ـ إذن فقل .

ـ قبل كل شيء غنى « آه لو كنت معى » .

ـ من قال لك أننى أجيد الغناء ؟

ـ قالت لى أذناى .. وهى تنصت فى سكون الليل .

ـ أكنت تسترق السمع ؟

ـ لم يكن هناك ما يدعو للاستراق .. فقد بعثت مع النسيم صوتك .. فحمله إلىّ .

وكانت العربة قد عبرت كوبرى الزمالك واتجهت يسارا .. فقلت متسائلة :

ـ لم تقل ما تود قوله ؟

ـ لا أظن بى حاجة إلى قوله لأنك تعرفينه سلفا .

ـ لست أعرف شيئا !

ـ لا أجد الألفاظ الملائمة لقوله .. لأنى لست شاعرا .

ـ ولا أنا .. قل باختصار !

ـ إنى أحبك .

وأطرقت برأسك وكسوت وجهك علائم الحزن التى طالما أبصرتك عليها ، ثم قلت فى شبه استخفاف :

ــ هذا قول لا فائدة منه .

ــ كيف .. إنى جاد فيه .. إنى لا أستطيع الحياة بدونك .. سأتقدم إلى أبيك لخطبتك .

ورأيتك تلتفتين إلىّ ببطء ، ثم انطلقت منك ضحكة قصيرة ساخرة مليئة بالمرارة ، وتساءلت :

ــ تتقدم لمن ؟

ــ لأبيك .

ــ أين هو ؟

ــ ذلك الرجل الذى أراه فى داركم .

ــ إنه ليس أبى .

ــ ليكن من كان .. سأتقدم إليه .

ــ حتى ولو كان زوجى ؟

ــ زوجك ! زوجك أنت ؟! أنت متزوجة ؟

ولم أشك فى أنك تحاولين أن تمزحى ، فقلت متضاحكا :

ــ لا داعى للمزاح .. إنى أتكلم جادا .

ــ قلت لك إنه زوجى .

ــ والمرأة العجوز من تكون ؟

ــ أمى .. أتريد أن تخطبنى منها ؟

وكنت أحس أنى تلقيت صدمة عنيفة لم أفق منها بعد ، وعدت أتمتم فى دهش :

ــ أنت متزوجة ؟

وأجبت كأنما تحدثين نفسك :

ــ كنت أدرى منك بأنه لا فائدة .

ــ ألهذا كنت تصدينني ؟

ــ أكنت تريد من امرأة متزوجة أن تفعل سوى ذلك ؟

— كنت أحمق .. إنى آسف لما حدث .. لن أحاول إزعاجك بعد الآن .

هذا ما قلته لك .. ولكنى كنت أشعر وأنا أقوله أن من الصعب تنفيذه .. وأنه قد سبق السيف العذل .

لقد قلت لك إنى كنت أحمق ، ولكنى صرت بعد ذلك أشد حمقا .. لقد أحببتك ، وأنا لا أعلم أنك متزوجة .. فلما علمت .. لم أرتدع .. بل صرت أكثر ولها وولعا .

ومتى كان المحب يروعه منطق أو توقف حبه خشية عاقبة أو خوف زلل ؟

لقد كان من العبث وقف السيل .. لا من ناحيتى فحسب ، بل من ناحيتك أنت أيضا .. فقد هدم لقاءنا الأول كل ما كنت تتذرعين به من مقاومة .. وكل ما كنت تدعينه من صد وإعراض .

لقد جرف حبنا كل شيء : التقاليد والضمائر ، والخوف والفضيلة .

سارت بنا العربة يومذاك تتهادى فى الطريق المظلل بأشجار الكافور .. وكنا غريقين فى حزننا ويأسنا .. وليس آلف للقلوب من تشارك الأحزان .

ولكن هل كنت حزينا حقا ؟ لا أظن .

إن حزنى كان مجرد حزن سطحى .. أما فى الأعماق فقد كانت ترسب أكداس السعادة .

لتكونى من تكونين .. زوجة أو أما أو أى شيء .. كفى أنى أحسست أنك تحبيننى .

إنك لم تقولى شيئا ، ولكن ملامحك وصمتك ووجومك واستسلامك واستنادك إلى كتفى كان أبين من كل قول ، وأفصح من كل شرح .

وأخيرا أوصلتك إلى قرب البيت .. وافترقنا على أن نلتقى كأصدقاء .

أصدقاء ! ما أقدر الإنسان على خداع نفسه !

نحن نلتقى كأصدقاء ؟

وأين نذهب من اللهفة المتأججة والشوق المستعر ؟

ولكن ماذا يضيرنا من أن نسكت ضمائرنا بهذا الادعاء ما دامت سريعة الاقتناع .. سريعة السكوت ؟

وتعوّدنا أن نلتقى بعد ذلك كل ليلة .. بعد أن يأوى الأهل إلى مضاجعهم ويغطون فى نومهم .. حيث نتسلل إلى شاطئ النيل كأننا طفلان هاربان .. ونهبط فى القارب الذى تعوّد الملاح إعداده لنا فى تلك الساعة ، وأتسلم منه الشراع الصغير ، ونخوض به جوف النيل .

أكان ذاك حقيقة .. أم حلما من أحلام الدجى ؟

كيف مرت بنا الليالى وقتذاك .. الزورق ينساب فى لين ، والنسيم يعبث بالشراع .. وأنت متكئة برأسك على صدرى .. وعطر شعرك يملأ أنفى .. وذراعاى تحيطان بجسدك الرقيق .. وصوتك العذب يردد أغنيتنا المحبوبة ، وكأننا نعيش فيها :

آه لو كنت معى نختال عبره
بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره
حلم ليل من ليالى كليوبتره

ولم ليالى « كليوبترة » وليست لياليك أنت يا عروس البحر يا حلم الخيال ! وتأخذين فى تكرار « آه لو كنت معى » .. وأنت ترنين إلىّ بعينيك فى حنين وشوق .. فأهمس فى فمك « إنى معك .. معك دائما » .

ولكنك تهزين رأسك فى أسف كأنك تقولين : « أحلام خيال تبددها اليقظة » .

* * *

وذات يوم سمعت طرقا على الباب غير عادى .. ثم أبصرت خادمتك تقبل علىّ مذعورة وتسألنى الحضور إليكم لأن سيدها قد أغمى عليه .

وأسرعت بالحضور إليكم ، وأخذت أفحص زوجك الكهل ، وقمت له

بالإسعافات اللازمة ، واتضح لى أنه مصاب بضغط الدم ، وأنه يخشى عليه احتقان فى المخ أو شلل .

ووجدته مخلوقا رقيقا طيبا ، فأخذت أطمئنه على صحته وأنبأته أنى سأتولى علاجه .

وهكذا وجدت نفسى قد أقحمت فى داركم وأصبحت برغمى صديقا حميما لزوجك .

وبدأ الضمير يطرق طرقاته ملحة متوالية .. ليبنئنى فى لحظة أننى قد بت شر أنواع الرجال .. يسقينى من حبك مرارة وعلقما .. ويسمم لى علاقتنا ، ويبديها على حقيقتها أمرا إدًا وفعلا نكرا .

ووجدت نفسى — لكى أحتمل حياتى — أمام أحد أمرين : إما أن أقطع علاقتى بك أو أمحو صلتى به .

وكنت أعلم تماما أنى لا أطيق بعدك ولا أحتمل فراقك ولكننى كنت أعلم كذلك أن زوجك فى حالته الراهنة — وبعد أن توليت علاجه فى أول الأمر — فى أشد الحاجة إلىّ وإلى ثقته بى ، ومن الجرم أن أنقطع عن تولى أمره فجأة قبل أن يبل .

وأخيرا .. وفى ثورة من ثورات الضمير .. قررت أن أنقطع عنك .

كانت غباوة .. أو غرورا .. أو حسن ظن بالنفس .. سمها ما شئت .. فكثيرا ما تنتابنا نوبات جنون .. توهمنا بأننا قد وهبنا من الإدارة ما نستطيع به وأد قلوبنا .. وقتل مشاعرنا .

وبدأت أنأى عنك وأتباعد وأتهرب من لقائك والنظر إلى عينيك .. وكنت أحس المرارة والخذلان فى ملامحك دون أن أحدثك أو حتى أنظر إليك .. ولكنى كنت أتجلد وأتصبر .. وكان عزائى عن ألمك أنى أشاركك إياه إن لم يكن ألمى شرا منه .

وبذلت كل ما أملك فى علاج زوجك ، ولم أبخل عليه بجهد ، فقد كنت

أحس أن جهودى معه تكفير عما فعلت به .. وبدأت أشاهد ثمرة جهودى بأن ظهرت عليه بوادر الشفاء .

وخلوت إلى نفسى ذات ليلة بعد طول تعب وسهد ، فتملكنى إحساس جارف بالحزن والضيق والحرمان ، وأحسست أنى أكاد أسقط إعياء بعد طول عدو .. وكان كل ما بى مبعثه الحنين إليك واللهفة عليك .. وبدأت أتململ من القيود التى شددت بها نفسى قائلا :

إنى قد قمت بواجبى نحو زوجك ، وأن علىّ أن أقوم بواجبى نحو نفسى وألا أترك قلبى ييبس وروحى تذبل وتجف .

أكثير عليه أن أسترد منه حياتى بعد أن وهبته حياته ؟ أجل .. ليهبنى حياتى .. وحياتى أنت ولا حياة لى سواك .

وانقطعت عن زيارتكم بضعة أيام ثم ذهبت إليكم .. لا لعيادته بل لأنبئك أنى عدت إليك .

ولم أجدك .. وأنبأتنى أمك أنك ذهبت إلى خالتك منذ ليلة أمس لأنها مريضة وفى حاجة إلى من يعنى بأمرها .

وعجبت .! لم لا تذهب أمك إلى خالتك وهى أختها ، وتبقين أنت بجوار زوجك ؟!

وفى اليوم التالى ذهبت إلى عملى بالقصر العينى .. فإذا بزميل أخصائى فى أمراض النساء يهمس فى أذنى أنه يريدنى لأمر هام .. وفى مكان خال أنبأنى أن مريضة فى مستشفاه تريد رؤيتى .. وعجبت من قوله وذهبت معه وأنا مشدوه .. ولم يك يخطر ببالى قط أنك أنت هذه المريضة حتى رأيتك .

أجل أبصرتك أنت بوجهك الشاحب وقسماتك الهادئة وقد استلقيت على الفراش فى ضعف واستسلام ، فسألتك فى لهفة عما بك .

وأنبأتنى هامسة أنها عملية إجهاض .. وأنك أقدمت عليها خشية أن يفضح أمرك عندما وجدتنى قد خذلتك وتخليت عنك بعد أن كنت تنوين أن تسألى

زوجك أن يهبك حريتك ويطلقك لكى نعيش معا .

وذهلنى قولك .

أأنا أخذلك وأتخلى عنك ! أتخلى عن حياتى ؟

أقسم لك أنى ما عرفت قط أنك حامل ، وأن انصرافى عنك لم يكن سوى ثورة ضمير نشأت عن قربى من زوجك العجوز .

لشد ما أخطأت فى ظنك .. إنى على استعداد لأن أحمل عنك وزرك .. فإنه وزرنا .

إنى سأذهب لأنبئه بنفسى ، وأطلب منه أن يهبك حريتك .

وغادرتك بعد أن بللت يديك بأدمعى ، أدمع التكفير والندم .. لقد كان يجب علىّ أن أكون أشجع من ذلك ، ولا أتركك وحدك وأتراجع فى منتصف الطريق .

ومرة ثانية وجدتنى قد اتخذت قرارا أعجز عن تنفيذه . كيف أواجه الرجل الذى لم يكد يبل من مرضه بالحقيقة المؤلمة ؟ كيف أطلب منه أن يطلق زوجته التى حملت منى لأنى أريد زواجها ؟ هذا منتهى الجنون . إنى لا شك قاتله بقولى .

لا .. لا .. إنى لا أستطيع .. يجب أن أؤجل المسألة حتى أجد لها حلا .

ومع ذلك لم أكد أقترب من الدار حتى وجدت الحل سهلا ميسورا .. فقد رأيت فى داركم حركة غريبة .. وسمعت فى داركم صوت بكاء ، ثم علمت أن زوجك وفر علىّ مشقة مواجهته .. وأطلق سراحك وصعد إلى السماء .

ولا أكتمك أنى شعرت من موته بصدمة .. رغم أنى وجدت فيه حلا لمشكلتنا .

وعدت إلى المستشفى لأنبئك أننا قد بتنا أحرارا فى حبنا وأننا نستطيع الزواج .. ولكنى وجدتك أنت أيضا قد رحلت .. لقد قضى عليك نزيف مفاجئ .

أية سخرية هذه ؟ من يصدق أنكما رحلتما سويا فى ساعة واحدة ؟ لقد أبى العجوز إلا أن يأخذك معه .. أتراه كان يعلم كل ما بيننا ؟ من يدرى ؟

لقد هجرت الشرفة وهجرت البيت .. لم أطق البقاء فيه لحظة واحدة ، ومرت بى السنون وأنا كليم القلب ، شارد الروح لا أكاد أبصر زورقا يجرى ، أو شراعا ينساب ، حتى يحمل إلىّ صوتا حنونا يهتف بى : « آه لو كنت معى » .

* * *

وأوشك أعبده

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوَّده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده
يستهوى الورق تأوهه ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده
بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجن به فأقول وأوشك أعبده

(شوقى — عبد الوهاب)

يا لائمى فى الهوى ، أرح من اللوم نفسك .

أنا مجنون ، فلا تضع وقتك معى عبثا .. إن ضرب الميت حرام ، ولوم المجنون عبث .

أنا سعيد بأحزانى ، ولوعتى وأشجانى ، فدعنى أعب منها ما استطعت فقد استسغتها وروّضت عليها نفسى ، حتى باتت جزءا من كيانى .

دع عنك لومى ، فقد تعوّدت البكاء ، وملت إليه .

إن القلب لن يضجع ، والفؤاد لن يهجع .. فقد أقسما ألا يغمض لهما جفن بعد رقدتها الأخيرة ، وأن يرعياها فى ضجعتها بين الثرى بعين الحب والشوق التى ظلت كليلة عنها حتى رحلت .

أجل .. إنى سأعوّضها وفاء عن طول وفائها ، وحبا عن عظيم حبها .. علّها تغفر لى فى قبرها ما بدر منى فى حياتها من إهمال وإعراض وتجاهل وإنكار .

لا تقل إن حبى سيراق على عظام نخرة وقبر بقفرة . لا تقل إنى لن أجد له

مجاوبة ولا ردا ، فما كان ذلك ليثنينى عن حبى لها . ألم تكن هى تحبنى دون أن تنتظر منى مجاوبة ولا ردا ؟

إن حبى لها لا يطلب ردًّا ، فهو نفسه ردٌّ لندائها الضائع المتبدد ، إنه صدى لحنينها الصامت ورجع لصبابتها الذاهبة .

أنا لا أرجو من حبى شيئا .. فقد سبق أن أخذت عوضا عنه دون أن أشعر .. إنى أردّ به دينا قديما .

إنى لأجلس فى سكون الليل الحالك المدلهم ، صامت اللسان ، صاخب الحشا ، أرقب نافذتها المظلمة التى طالما راقبتنى من خلالها .

إنى لأحيا على ما مضى .. على وريقات خلفتها لى بعد أن وضعت فيها عصارة روحها وذوب نفسها وقلبها ، أقلبها بين يدى وأضمها إلى صدرى فأجد فيها عزاء جميلا .. ويستبد بى الحنين فأبصرها من خلال الورق .. وأسمعها فى هديل الورق ، وأبيت والغائب الحاضر فى خلوة ممتعة هنيئة ، لا يشوبها عاذل ولا يقطعها رقيب .. سوى نسمة تعبر ، أو طير يرف .

إنى لأقرأها المرة بعد المرة ، وأنا جاثم فى خلوتى أتطلع إلى مقرها السابق من النافذة المغلقة .. ما مللت قط من القراءة أو النظر .

لقد حفظتها عن ظهر قلب ، وباتت كل كلمة منها ، بل كل حرف ، منقوشا فى ذهنى وفى قلبى ، كأنها كلام الله فى قلب المؤمن .

وإنى لأستطيع تلاوتها وأنا مغمض العينين ، وأترنم بها كاللحن الجميل والأغنية الساحرة .

* * *

« حبيبى ...

أتراني أخاطبك أم أخاطب نفسى ؟

إنى واثقة من أن حديثى لن يبلغك ، وما أحسست من هذا بضيق ولا حزن ، فما أردت بكتابتى أن أبلغك إياه ، لأنى لا أجسر على هذا ، ولا أرجو منه أية فائدة .

كيف لا وأنا أعلم علم اليقين أنى فى نظرك مخلوقة غير كائنة ، أو كائنة كالملايين غيرها من الكائنات التى لا تعنى لديك شيئا خاصا .. بل تمر بذهنك مرورا عابرا دون أن تترك أقل أثر ودون أن يكون لها استقرار فى نفسك إلا لحظة مرورها بك .. أما بعد ذلك فتصبح نسيا منسيا .

أنا أكتب لك — أو لنفسى — لأن ذلك هو خير ما أملك ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يحدث لى لو لم أروّح عن نفسى بهذه الكتابة .. إن لى فيها عزاء .. إنى أفرغ بها جمرات من الوجد تتأجج فى صدرى وتستعر فى قلبى ، وأهيئ بها لنفسى من متع الأوهام ما يعوضنى عن شقاء الواقع وظلمات الحقائق .

إنى أحبك .. أقولها ولا أخشى لومة لائم .. فما من أحد يستطيع سماعها إلا أنا ، وما من أحد يستطيع أن يشعر بحبى إلا أنا .

إننى أحبك ، أحبك ، دعنى أرددها .. فإن فى مجرد ترديدها متعة كبرى .. إنى أحس منها بنشوة عجيبة .. وكأنى وأنا أقولها أضع رأسى على صدرك وأترك شعرى لأصابعك تتخلله وتعبث به .

ألم أقل لك إن فى الكتابة إليك خير عزاء ؟ إنى أستطيع أن أكتب بشجاعة وصراحة وأن أقول كل ما أتمنى قوله ، دون خجل ولا خشية . إنى أتمتع بحرية فى الكتابة لا أظننى كنت أستطيعها لو خاطبتك وجها لوجه .. أو حتى لو علمت أن كتابتى هذه ستصل إليك وتبلغ مسامعك .

دعنى أجول بك جولة فى ربوع الماضى ، نعبر القفار ونخترق الآكام .

دعنى أشرح لك كيف كنت أراك وأرقبك وأتتبع خطاك ، وأنا أكاد من الوجد أذوب ، وأنت عنى — سامحك الله — معرض ساه .

كانت أول مرة رأيتك فيها ، وقد مررت بدارنا فى ذهابك إلى كليتك ، وكنا قد انتقلنا حديثا إلى الدار التى اشتريناها ، ثم تعودّت أن أبصرك بعد ذلك كل صباح عندما كنا — أنا وأختى — نقف أمام الباب فى انتظار عربة المدرسة ، وعلمت — حينئذ — أنك تقطن فى دار مجاورة كائنة وراء دارنا .

ومرت الأيام وأنت تمر بنا مرورا عابرا حاملا حقيبتك المليئة بالكتب ، والمسطرة حرف T تحت إبطك وقد بدت عليك علامات الجد والوقار كأنك « باشمهندس » كبير ، لا طالب هندسة ، ولم تكن تعيرنا كبير اهتمام .. لمظهرنا الصبيانى .

وهكذا ظللت لا تزيد فى نفسينا عن أن تكون إحدى ظواهر الشارع الثابتة الميعاد كبائع اللبن أو عربة الرش أو ساعى البريد ، أو .. إن شئت الصدق .. أفضل قليلا .. بوسامة منظرك وامتشاق قوامك .. حتى التقينا بك يوما فى سينما مترو ، وقد وقفت أمام شباك التذاكر فى مقدمة الصف الطويل الذى اصطف فيه جمهور غفير ممن يريدون الدخول .

ولم يكن هناك أمل فى دخولنا ، فقد كان احتشاد الناس يبعث على اليأس .. وهممنا فعلا بالعودة ، أنا وأختى وأخى ووالدتى ، ولكن عندما لمحتك واقفا فى الصف الأول ضربت أختى بمرفقى ألفت نظرها إليك ، والتقت أبصارنا فابتسمت وأشرت برأسك محييا .

استغلت أختى فرصة ابتسامتك — وهى تفوقنى جرأة واستغلالا للفرص — فتقدمت إليك وسألتك أن تبتاع لنا أربع تذاكر ، وأخذت النقود من أخى فدفعت بها إليك ، ولبيت الرجاء بابتسامة لطيفة وحاولت أن تمتنع عن أخذ النقود ، ولكنها ألحت عليك فقبلتها مرغما .

وابتعت التذاكر ودخلنا معا ، بعد أن أنقذتنا من ضيق العودة إلى الدار خائبين ، وقمنا بواجب التعارف بينك وبين أمنا وأخينا .. ولم نكن نعرف عنك سوى أنك جارنا الطالب بالهندسة ، أما غير ذلك فقد كنا نجهله ، حتى اسمك لم نكن نعرفه .

وكانت المقاعد الخمسة متجاورة ، فتم تعارفنا خلال فترات الراحة ، وسألتك والدتى عن والدتك وأنبأتك أنها « واخدة على خاطرها منها » لأنها كان يجب أن تبدأها بالزيارة فاعتذرت بأنها كانت مريضة وأكدت لها أنها ستزورها فى

أقرب فرصة .

وعدنا معا إلى دورنا ، ووجدتك على غير ما كنت أتصور ، حلو الحديث ، حاضر النكتة ، لطيف المعشر ، لا أثر فيك للتكلف أو الغرور ، (النفخة) التى كنت تبدو بها وأنت تسير أمامنا حاملا المسطرة حرف T .

وأستطيع أن أجزم أن بداية حبى لك كانت فى تلك الليلة ، وقد كانت هى نفسها بداية يأس وبداية إحساس بالخطر .

« رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .. وأنا ما طمعت فى رحمة الله إلا لهذا السبب . فأنا أعرف تماما قدر نفسى ، أعرف أننى لم أهب الكثير مما يسبى ويفتن ، وأعرف أن جمال باطنى يفوق كثيرا جمال ظاهرى ، ولم أحاول أن أدع المرآة تخدعنى وتموّه علىّ . أو أن أقنع نفسى بخطأ مقاييس الجمال ، وأفهمها أن الشعر الخشن أجمل من المسترسل ، وأن السحر يكمن فى العيون الضيقة والحواجب الثقيلة .

كنت أعرف أن وجهى قد يكون مقبولا ، ولكنه ليس بالوجه الجميل ، وأقسم لك أن ذلك لم يكن يسبب لى أى ضيق ، فقد كنت منطوية على نفسى لا آبه بمن حولى ، والإنسان لا يهتم بصورته إلا لتأثيرها على من حوله ، فإذا كان لا يهتم بهم ، فهى عنده غير ذات موضوع .. لقد كنت فى شغل شاغل عن الناس وعن نفسى ، بالرسم والقراءة والموسيقى ، ومحاولة الكتابة وقرض الشعر .

لقد كان ظاهرى صامتا ، أما باطنى فقد كان يصخب بالمشاعر والأحاسيس .. لقد كنت غنية عن الناس بنفسى ، وكنت أملك فى جوفى كل عناصر الاستقلال الذاتى .

وأرقت تلك الليلة فلم يغمض لى جفن حتى ساعة متأخرة من الليل .

وأحسست لأول مرة أن جمالّ باطنى لن يغنينى شيئا ، وأنى لم أعد غنية بنفسى ، وأنى فقدت استقلالى الذاتى ، وبت أشعر أنى مخلوقة ضعيفة ذات سلاح مثلوم مغلول مغمور فى غمده .

فكرت فيك كثيرا فى تلك الليلة ، وبدا لى أنى أصبت بحبك منذ زمن طويل .. منذ رأيتك أول مرة تمر بدارنا . ولكن جرثومة الحب ظلت كامنة حتى هذه الليلة عندما جلسنا متجاورين وتلامست كتفانا ثلاث ساعات فى الظلام .

وكان يجب علىّ ، وقد أصبت بلوثة الحب ، أن أغمض عينى وأمتع بأوهام العشاق ، وأن أعلل النفس بالآمال ، وأمنيها بأعذب الأحلام .. ولكنى لم أجسر على ذلك ، فقد اندفع فى نفسى — مع إحساسى بحبك — إحساس باليأس منك .. ففى لحظة واحدة دق فى قلبى ناقوسان : ناقوس الحب وناقوس الخطر .. أو ناقوس عرس وناقوس جناز .

كنت أعلم من اللحظة الأولى أنى مقبلة فى حبك على معركة لا قبل لى بها ، وأنى سأعجز عن خوضها ، وسأولى منها فرارا ، ولقد فررت منها فعلا ، ولكن بعد أن أصابنى السهم فى الصميم ، فانطويت على نفسى وأخذت أنزف ببطء .

كان خصمى فى المعركة هو أختى .. لقد دققت أنت ناقوس الحب ، ودقت هى ناقوس الخطر .. ولا أظن المعركة قد نشبت بيننا قط ، فقد ألقيت السلاح واستسلمت من اللحظة الأولى ، وأخليت لكما الميدان ، ووقفت أرقبه محسورة .

لقد كان من الجنون أن أغامر فى معركة ضد أختى ، وقد وهبها الله أمضى أسلحة الجمال وأرهفها حدا : من شعر كأمواج الليل ، ووجه جذاب الملامح حلو التقاطيع ، وجسد فارع ممشوق .. وأكثر من هذا كله شخصية مسيطر متحدثة تتضاءل بجوارها شخصيتى .

وهكذا كسبت المعركة من الجولة الأولى ، ولم يعد هناك شك فى أنها استأثرت دونى باهتمامك فى أول لقاء .. وفى كل لقاء .

وحضرت والدتك لزيارتنا فى اليوم التالى ، ثم أخذت العلاقات بيننا تتوطد ، وكثر التزاور بين العائلتين ، وأقبلتَ علينا متذرعا بالصداقة التى نشأت بينك وبين أخى ، ورفعت بيننا الكلفة فأضحينا نراك فى دارنا فى أى وقت ، وأضحينا

نقضى فى بيتكم وفى حديقتكم شطرا كبيرا من فراغنا .

ولو كان قلبى بيدى ، لما ترددت لحظة فى أن أحوله عنك وأسكت دقاته العنيفة المتواصلة التى تتواتر كلما لاح له طيفك أو طافت به ذكراك ، ولأرحته منك وأرحت نفسى منه .. ولكن أمره لم يكن بيدى .. لقد كان ثائرا متمردا ، أحمق طائشا ، مصرا على حبك بلا تفكير ولا أمل .. أثمله الحب فلم يعد يرجو سوى أن يبقى فى ثمله ونشوته ، راقصا مترنحا يصفق لك ويهفو إليك .

وأصابك من الحب ما أصابنى ، وكنت أقدر الناس على فهم مشاعرك .. لقد شغفت بك وشغفت أنت بأختى ، بت مجنونة بك وبت أنت مجنونا بها .. وما ألومك وما ألوم نفسى .. فقلوبنا حرة تخفق لمن تشاء .. وتحن لمن تشاء .. وقد استسلمت لقضاء الله من أول الأمر ، ولم يعد هناك مجال للوم .. وهل يلام إنسان لأنه لم يستطع رد القضاء ؟

أما الذى يستحق اللوم حقا فهى أختى .. ولقد أخطأت أنا فى حبك ولكنى كنت مخلصة فيه ، وأخطأت أنت بحبها ولكنك لم تكن تقل عنى إخلاصا . أما هى ، فما أحبت وما أخلصت ، ولكنها كانت بك لاهية عابثة مخادعة .

أنا لا ألومها لأنها لم تحبك . وإن كنت أعتبر هذا غباوة منها ، وأرى حبك شرفا لا تستحقه ، ولكنى ألومها على أنها تظاهرت بحبك ، حتى لقد استغربت ذلك منها وأنا التى أعرفها أكثر من نفسها .. مخلوقة أنانية مادية ، تسخر من المشاعر ، ولا تؤمن إلا بالمادة والواقع الملموس .

لقد كانت تتسلى بك ، وما حاولت قط أن تحمل حبك محمل الجد ، وأقبلت عليك إقبالها على شىء جديد ، أو على تجربة .

وهكذا بدأت التجربة بثلاثتنا .. أنا أحبك ، وأنت تحبها،وهى تتسلى بك وتعبث .

وأخذت أرقبكما فى صمت وسكون .. وأقول لك الحق إننى بدأت أكرهها لا عن غيرة ولكن من أجلك .

بدأت أحس لها ببغض ونفور ، مع أننا قد نشأنا معا طول العمر ، فما كانت تكبرنى بأكثر من عام ، وما افترقنا فى حياتنا لحظة واحدة .

إنى لم أكرهها لأنك أحببتها ، وما كنت بمبغضتها لو أنها نظرت حبك نظرة جدية ، فأحبتك مخلصة .. ولكنى أبغضها لأنها استخفت بك وبحبك وجعلت منك مسلاة .

وسار كل منا فى طريقه ، أنا ممعنة فى حبك ، أرقب من نافذتى فى سكون الليل حجرتك ، وأتطلع إلى شبحك مكبا على المكتب للاستذكار .. أنظر إليك فى حنين وشوق ولهفة ، وأظل ساهرة :

أناجى النجم وأتبعه   وأقيم الليل وأقعده

لا يغمض لى جفن حتى تأوى إلى فراشك وتسود الظلمة مضجعك .

لقد حفظت من طول المراقبة كل حركاتك وسكناتك ، وبت أعرف قبل أن تفعل أى شىء ، ما توشك أن تفعل ، ولم أكن أرى من حجرتك إلا المكتب وطرف الفراش ، ولكنى كنت أتصور بعين الوهم ما وراء الجدران .

فأرى الحجرة كأن جدرانها قد شفت ، وأراك تغدو فيها وتروح .. ثم ترقد على الفراش وتتمطى ، ثم تضع الوسادة فوق رأسك كما قلت لأختى ذات مرة .

وجرؤت مرة ودخلت إلى حجرتك ، وكنا فى زيارتكم فغافلتهم وتسللت إليها .. ولم أجدها غريبة عنى ، فقد كان كل ما بها تماما كما تصورت ، وجلست أمام مكتبك ، ورقدت على فراشك ، ووضعت رأسى على الوسادة حيث تضع رأسك ، وقبلت موضع فمك ، وشممت بقايا أنفاسك .. ثم غادرت الحجرة بعد أن سرقت شيئا أو على وجه أدق ، سرقت شيئين : صورتك ، ومنديلا ملقى على المكتب .. وما زلت أحتفظ بهما حتى الآن ، ذخيرة العمر وخلاصة متاع الحياة .

وسرت أنت فى طريقك .. وكان حبك لها كحبى لك قويا جارفا جعلك تغمض عينيك عما سواها .. وتتلمس المعاذير للحضور إلينا فإذا ما جلست معنا

أخذت تغمرها بنظرات ملؤها الصبابة والشوق والولع ، ثم بدأت تسوق إليها الهدايا وتشركني فى بعضها ذرا للرماد فى العيون .. ولم يضايقنى ذلك قط بل كنت به راضية قانعة .

كنت أحس أن أقصى متعة لى هى أن تكون أنت راضيا ، فأخذت أهيئ لك الرضاء عن طريقها .. أستيقظ فى الصباح فأجمع الورود ثم أوقظها وأسألها أن تحملها إليك .. وأظل أدخر من مصروفى كل دانق حتى أبتاع لك أسطوانة قلت ذات مرة أنها تعجبك ، وأقدمها لها قائلة إننا يجب أن نرد بعض هداياك التى غمرتنا بها .. فإذا ما قالت إنه مفروض فى الرجل أن يقدم الهدايا ، قلت لها إنها لن تكلفها شيئا سوى تقديمها إليك ، وإنى سأتحمل الثمن كله .

وكنت أعلم تماما مبلغ سرورك بتلك الهدايا التى تحملها إليك ، وخاصة أنك تظن أنها هداياها هى .. وأنها ليست مجرد حاملة لها .

وكنت أسألها بلهفة كيف تقبلتها ، وأطلب منها أن تصف لى رضاءك وسرورك ، وكان هذا هو كل ما أطلب .. لقد كان حسبى منك ، إحساسى بهنائك ، بأية وسيلة ، ومن أى طريق .

أما هى ، فقد سارت فى طريقها معك فترة وجيزة ، ثم أخذت تنكص على أعقابها ، كما كنت أتوقع ، إذ أصابها الملل وتملكتها السآمة ، وجعلت تتهرب منك وتلقاك بفتور .

وكنت أول من أحس بما أصابك من ضيق ولوعة .. وأصابتنى من لوعتك لوعة أشد ، وحز فى نفسى ما بدا عليك من شرود حزن .. وأحسست أن حبى لك يزداد عنفا .. وتملكتنى رغبة جارفة فى أن أدفع عنك الحزن وأبعد عنك الشجن .. ووجدت أن من واجبى أن أعلم أختى أو غريمتى فى حبك .. كيف تحبك .

ومرت الأيام وأنا أحاول أن أعيدها إليك ، وأن أغرس حبك فى قلبها ، أو أنقل إليها من قلبى عدوى حبك ، وكنت أجلس إليها الساعات الطوال أحاول

أن أسمو بها إليك ، وأعلمها الحب الصحيح ، وأريها منك ما لا يراه سواى أنا المدلهة .

وأفلحت إلى حد ما .. واستطعت أن أجعلها تلقاك فى الحديقة كل ليلة .. وهيأت لكما لقاء تتناجيان فيه وتنعمان بحبكما ، أو على وجه أصح ، تناجيها فيه ، وتنعم بحبها ، وكنت أجلس على مقربة منكما خشية أن يفاجئكما أحد ، وكأنى كلب أمين لا همّ له إلا حراسة سيده ، والسهر على راحته وأمنه وطمأنينته .. وهل لى من سيد سواك أسهر على راحته وأمنه وطمأنينته ؟

وهكذا ظللت أدفعها إليك ، وأسوقها إلى حبك ، وإلى لقائك ، حتى كان ذلك فى ليلة ليلاء عاصفة الريح شديدة البرد ، وكنت أجلس وراء زجاج النافذة أرقبك فى حجرتك كما تعوّدت أن أفعل .. وكان البيت غارقا فى صمت عميق والأهل كلهم قد استغرقوا فى النوم ، عندما سمعت على السلم حركة مريبة ، ووصل إلى سمعى وقع أقدام تسترق الخطى ، وأصخت السمع فانقطع الصوت .. ولكنه عاد مرة أخرى .. وقمت من مكانى فاتجهت إلى السلم . فإذا بأختى تقف فى نهايته ، ودهشت ليقظتها وسألتها ما بها .. فأجابت بأنها أرقت وأنها تبحث عن قرص أسبيرين لأنها تحس فى رأسها صداعا .

وعدت إلى حجرتى ، وبدأت الوساوس تملأ رأسى .. لقد كنت أحس من أختى فى بضعة الأيام الماضية ما يبعث على الريبة .. وكنت أراها تختفى من الدار فجأة دون أن أعرف إلى أين ذهبت .. كنت أرى فى ملامحها شرودا وتفكيرا . وكنت أشك كثيرا فى أن شيئا ما يشغل بالها ، وأن شخصا جديدا دخل فى حياتها .

وتركت حجرتى مرة ثانية وهبطت إلى الطابق الأسفل فراعنى أن أجدها واقفة بالباب الخارجى وقد حملت حقيبة فى يدها ، وأبصرت على باب الحديقة عربة تنتظر وبداخلها شبح لم أستطع تمييزه ، ولكنها أسرعت تعدو هاربة إلى الخارج واتخذت مكانها فى العربة .

وبلا تفكير عدوت وراءها لأمنعها من الفرار وارتكاب تلك الحماقة الكبرى ، خرجت من باب الحديقة والعربة تهم بالحركة واستطعت أن أتعلق بمؤخرتها قبل أن تمعن فى السير .

وصممت على أن أعيدها ، وأن أمنعها مما توشك أن تنزلق إليه من أجل إنسان واحد .. هو أنت .

وأخذت العربة تعدو فى الطرقات المظلمة ، والريح تصفر فى أذنى ، والبرد ينخر فى عظمى ، دون أن يستر جسدى سوى قميص خفيف .

وأخذت أنكمش وألصق جسدى فى العربة ، وأطبق يدى متشبثة بقطعة الحديد التى أمسك بها .. حتى أحسست فجأة بالعربة تعلو وتهبط ثم تدور فى منحنى ، وأفلتت يداى وشعرت بأرض الطريق تقرع رأسى ولم أفق بعد ذلك إلا وأنا طريحة الفراش .

وحمدت الله رغم ما أصابنى لأنى نجحت فيما أردت ، فقد عادت معى أختى إلى الدار بعد أن سمعت صيحتى ، وأنا أسقط إلى الأرض ، وادعت أمام أهلنا أننا خرجنا معا للتريض فمرت بى عربة صدمتنى ، ولم يكن أحب إلىّ من أن أوافق على قولها .

إنى أرقد فى فراشى سعيدة بما فعلت .. فإنى ألمح الندم يملأ وجهها ، وسعيدة أكثر بزيارتك لى ، وعطفك علىّ .. حتى بت أتمنى أن تكون حياتى سلسلة حوادث وصدمات حتى أحظى منك بهذا العطف .

ولكن لا .. لا أظن القدر ينعم علينا حتى بالحوادث والصدمات ما دمنا نطلبها ونحتاج إليها ونفيد منها .

كل ما أوده أن يهديها الله ويغرس فى قلبها حبك حتى تعيش هانئا .

* * *

هذا هو ما وعيته من كتابها وحفظته عن ظهر قلب .

لقد كتبته ثم رحلت بعد بضعة أيام ، قضت عليها الصدمة والالتهاب الرئوى

الذى أصابها فى تلك الليلة ، وقد عثرت أختها على الوريقات فأخفتها عن أهلها ثم حملتها إلىّ ذات ليلة وسألتنى أن أنساها لأنها لا تستحق حبى ، أما الذى تستحقه فهى صاحبة الوريقات .

وما أظننى كنت فى حاجة إلى نصحها بعد أن قرأت الوريقات .

من يصدق هذا ؟ من يصدق أن ذلك النموذج السامى كائن بين البشر ؟

إن الأيام تمر بى والحنين لا يخمد والشوق لا ينطفئ .. أجلس فى بهمة الليل شارد الذهن تائه ، باكى المقلة ذابلها ، أرقب نافذتها المظلمة وأتطلع إلى شبحها .

حيران القلب معذبة   مقروح الجفن مسهده

ويهتف بى صوت يسرى مع الرياح : « ألم يندمل القرح ؟ » فأقول : « بل زاد نكأه » ويقول : « ألا يعزيك عن الراحل شىء ؟ » فأقول : « إن العزاء لا يتطاول إليه ». ويقول : « أتضيع عمرك وراء أمل خاب ؟ » فأقول : « لست أول من أضاعه » . ويقول : « أتعشق الرميم ؟ » فأقول : « والرماد والهشيم » . ويقول : « تكاد تجن به ». فأقول : « وأوشك أعبده » .

* * *

فى الليل لما خلى

فى الليـــــل لما خلى   إلا من الباكـــــــى
والنوح على الدوح حلى   للصارخ الشاكـــــى
ما تعـــرف المبـــتلى   فى الروض من الحاكى
(شوقى ــ عبد الوهاب)

أخذت أصابعها تعبث بالرسالة وهى شاردة واجمة ثم أطبقت عليها فجأة وتملكها يأس بالغ وحزن شديد .

هذه سخرية جديدة ، من سخريات القدر !

ضحكة أخرى ماجنة من ضحكاته التى يأبى إلا أن يلاحقها بها ، فينفث بها السم فى جوفها .. ويحرك منها الشجن ويثير اللوعة .

لو أنه تركها فى ظلمات يأسها الحالكة ودياجير وحدتها الموحشة ، لاستطاعت ، رغم ما بها ، أن تحتمل .. فكل بلاء فى هذه الحياة يمكن احتماله بطول الأناة والتعوّد ، وكل مصاب لا بد أن يوهن الزمن من حدته .. ويخفف من وطأته .

وهى قد تعوّدت الشقاء حتى استساغته ، وأنست إلى اليأس حتى لم تعد تذكر أن هناك شيئا يسمى الأمل ، ووطنت النفس على الوجدة حتى باتت من وحدتها فى اطمئنان وأمن .

ترى لم يأبى عليها القدر هذا الاطمئنان إلى الوحشة ، والراحة فى اليأس ؟ أعلى الشقاء لا تخلو من الحسد ؟

لم يأبى القدر إلا أن يذكرها بما هى فيه ، ويلوح لها بالأمل ، بعد أن أضاع الأمل ؟

أكلما اندمل جرح ، دمى جرح ؟ وكلما شفى قرح ، نكئ قرح ؟..

أكلما تعوّدت الظلماء ، أراها من الضياء قبسا ، ومن النور بارقة ، فلا تكاد تتعلق بهما ، حتى تذروهما الرياح وتتركها فى ظلمة أشد وبهمة أحلك ..؟

ولكن لم تتعلق هى بهذا الشعاع الكاذب ، والقبس البراق ؟ لم لا تغمض عينيها فلا تعود تحس بألم الخدعة ، ومضاضة الوهم ..؟

إنها تحاول ، ولكن لا تستطيع .

أى تائه فى الحلكات يستطيع أن يغمض عينيه ، عن بارقة تلوح ، مهما كانت كاذبة ؟

أى صادٍ ، يمكنه أن يعرض عن سراب يلمع ، مهما يكن كاذبا خداعا ..؟

إن النفس الحزينة لتتوق إلى العزاء ، حتى ولو كان نفاقا فى نفاق .

وهكذا كانت تقبل ، فى كل مرة ، على البارقة الكاذبة ، والسراب الخادع ، والعزاء الملىء بالمرارة والسخرية .

فى كل مرة كانت تصيبها نفس المتعة ونفس النشوة . وفى كل مرة أيضا ، كانت تعقبها نفس الصدمة ونفس اللوعة .

فى كل مرة كانت تندفع مع القدر الساخر إلى قمة الأمل ، وفى كل مرة كانت تهبط معه إلى قرارة اليأس .

وها هى أخيرا ، تمسك فى يدها بسخرية جديدة ، بارقة تلوح ، وسراب يلمع .

نفس الحديث الملتهب ، والجمل المليئة بالوله والصبابة والألفاظ الشاعرية العطرية ، التى تفوح من خلالها رائحة اللهفة والشوق .

عزيزتى ...

لا أشك فى أنك لا تعرفين من أنا . ولا أى إنسان بين المخلوقات أكون ، ولا أظننى قد كتبت إليك هذا لأعرفك به ، فذلك أمر قد لا يهمك معرفته — على الأقل فى وقتنا هذا — فأنا لا أعدو أن أكون بالنسبة إليك ، أحد آلاف المجهولين

الذين لا تحسين بهم والذين لا تربطك بهم صلة مهما وهت أو يشدك إليهم وثاق مهما رق واضمحل .

ولكنى كتبت إليك هذا ، لأعرف من تكونين ..؟

من تكون هذه الساحرة التى أصابنى منها مس غيَّر كل ما بنفسى وقلبنى رأسا على عقب ..؟

أنت بغير شك لا تحسين ما فعلت بى ، بل أغلب ظنى أنك تروحين وتغدين فى الحياة ناعمة البال مطمئنة الخاطر ، كأنك لم تقلبى كيان إنسان ، ولم تلهبيه وتؤججيه ، بل من يدرى ؟ إننى لست أول من تفعلين به هذا ، لأن هذا هو طبيعة عملك فى الحياة ، تباشرينه ببساطة كما يباشر أى إنسان مهنته التى تعوّدها عشرات السنين ، حتى بات يفعلها دون أن يدرى ما يفعل .

اعذرينى إن أسهبت ، فما حيلة محروم منك ، مسلوب نعمة لقائك ، إلا أن يلجأ إلى لقائك على الصفحات ، يسهب فيطيل اللقاء ، ويبسط قلمه فيزيد الوصل .

هل تذكرين كيف التقيت بك أول مرة ؟ لا أظنك ! فإن الشيء الذى قد أراه حدثا يصح أن يؤرخ به التاريخ ، قد يكون عندك تفاهة تتكرر فى حياتك كل يوم .

على أية حال ، تذكرين أم لا تذكرين ، إنى أذكر جيدا ، ذلك الحدث الذى غير مجرى حياتى .

أذكر أول لقاء لنا ، على متن الريح ، لقاء فى الهواء لا وجها لوجه ، بل صوتا لأذن .

لقيتك ذات ليلة والنفس حزينة والذهن شارد مكتئب وقد جلست فى الشرفة ساهرا مسهدا ، أعد — كما يقولون — نجوم الليل ، وأسمعها الشكوى وتسمعنى الأنين .

كنت وقتذاك نموذجا لإنسان بائس يائس ، يزخر كيانه بالتعاسة ، وتفيض

نفسه باليأس .

كنت أكره الدنيا ، وأكره الناس .. كنت أتذوق طعم المرارة فى كل قطرة من كأس الحياة ، وكنت أشم رائحة اليأس فى كل هبة من ريحها .

كنت أتململ تململ السليم الذى أرقه السهد وأسائل نفسى : لم نحيا ؟ وما الذى سنجنيه من طول عناء وكد وامتطاء لمركب صعب ؟ لم كل هذا ؟ وما الذى يغرينا بالصبر والاحتمال ؟

كنت أسائل نفسى ، فيعيينى الرد ، حتى حملت الريح إلىّ فى تلك الليلة الجواب ، فأحسست ـــ بعد طول حيرة وهيام ـــ بأنى قد استقررت بعد بحث على مقر ، واهتديت أخيرا إلى مرفأ .

فى تلك الليلة جلست أرقب الكون وقد سكنت أحشاؤه وركدت ريحه ، وبدت الكواكب قد علاها الشحوب وأضناها الكلال ، وزادت وحشة الليل وبهمته من وحشة نفسى .. فى وسط هذا السكون العجيب المخيم حمل إلىّ نسيم الليل الهادئ صوت موسيقى ناعمة هادئة ، تنبعث فى أجواء الفضاء كأنها نفس من الفردوس أو نغمة من السماء ، وأحسست بالنغم الجميل ينفذ إلى نفسى فى لين لظاها كأنما هى كف رطبة ندية تمسح بحنان رأسَ محمومةٍ التهب لظاها واحتدم سعيرها .

وكان اللحن يصل إلى أذنى خافتا كالضوء الشاحب .. والشعاع الكليل والقبس الواهن .. كان يصل إلىّ مترنحا متقطعا ، ذوّب النسيم أوصاله ، ورقق أعطافه ، فانساب إلى النفس كأنه فتات من أصوات الملائكة ، أو كأنه عطر لنغم فياض أو مسحوق للحن طرب .. انتشرت ذراته فى الهواء .. وتسللت إلى الصدور .. واستقرت فى الحنايا .. واختلطت بشغاف القلب ، فتركت النفس نشوانة كأنها حقنت بمخدر أو ثملت بخمر .

ترى هل استطعت أن أبين مشاعرى .. أم أن حديثى يبدو كلاما منمقا مزركشا ؟. هل استطعت أن أصف جيدا وقع اللحن فى نفسى .. أم أنى لم أزد فى

قولى عن خيال الشعراء ؟

قد أكون ، وقد لا أكون .. فقد يفهم البعض قولى ، ولا يفهمه البعض الآخر . بل أغلب ظنى أنه لن يفهمه إلا من جلس مثلى حزينا فى جوف الليل ، وحمل إليه النسيم مثل لحنك الخافت الناعم الذائب ، فمنه ما يشبه السحر . خلاصة القول ، لقد وجدت نفسي بعد لحظات واللحن يسرى إلىّ ويملك حواسى ويهز مشاعرى ، وكأن ما بى من حزن قد صهر ، وإذا بعينى تدمع ومقلتى تهمى وإذا بجامد الدمع فيهما قد ذاب .

واندفعت فى نوبة من البكاء حارة مغرقة . أبكى وأبكى . أنا الذى طالما استعصى علىّ الدمع وجفت مآقى ، وظلت الأحزان تتكتل فى نفسى دون أن تجد لها مخرجا ، حتى بت كأنى جلمود يأس وصخرة حزن .

وهكذا استطاع لحنك الهادئ فى جوف الليل أن يفتت حزنى ويذيب دمعى .. ووجدت نفسى — أنا الرجل الرشيد العاقل — أبكى كالأطفال ولا حياء .. بل لقد أحس من بكائى راحة وهدوءا .

وانتهى اللحن .. وخفتت الموسيقى .. وابتلعهما سكون الليل البهيم ، ووجدتنى أعود إلى فراشى — لأول مرة — قرير النفس هادئ البال وملء أذنى صدى النغم .. وملء جوانحى صوتك الحنون .. يهتف ناعما خافتا :

فى الليـــــل لما خلى إلا من الباكـــــى

كان ذلك أول لقاء بيننا .. لقاء — كما ترين — على أجنحة النسيم .. لقاء أرّخ مولدى من جديد .. وبدّل حياتى .. وغيَّر مشاعرى .. لقاء كان يعتبر بالنسبة لى .. بعثا .. وإن لم تشعرى به أنت .

وكذا بدأت أنتظرك ليلة بعد ليلة .. أبدد بألحانك أحزانى .. وأضىء ظلمة نفسى .. وباتت موسيقاك فى جوف الليل .. ألزم إلى نفسى من كل ضرورات الحياة .

وبدأت أبحث عنك وأستقصى أخبارك فعلمت من خادمى أنك تقطنين على

مقربة منا .. وأنك منطوية على نفسك .. متباعدة عن الناس .. ميالة إلى الوحدة .. فزادت لهفتى عليك ووجدت فيك صنوا لنفسى .

ومرت الأيام وأنا قانع منك بهمساتك الرقيقة وموسيقاك العذبة ، وبلقاء فى جوف ليل خلا .. إلا من الباكى .

إنى أتمنى لقاءك ، ويبدو لى أنك أرق من أن تخيبى لمخلوق رجاء أو تردى لإنسان مطلبا . وأؤكد لك أنى لن أضايقك كثيرا .. ولن أثقل عليك من فؤادى الملآن وصدرى المفعم .

هل تسمحين بلقاء ؟.. إنى واثق أنك لن تقولى لا .

* * *

وتهاوت الرسالة بين يديها ، وهزت رأسها فى يأس ، وهمست فى إصرار :

ـــ بل ، سأقول لا ، وألف لا .

كفاها مرارة وخيبة . وكفى القدر سخرية منها .

وأكثر من هذا ، ستبطل الغناء والعزف فى سكون الليل ، عزاؤها الوحيد فى هذه الحياة ، ستكف عنه ، ما دام هو السبب فى هذه السخرية .

إنها تذكر الرسائل السابقة ، كانت تفيض رقة وولها ، من عشاق ، جذبتهم ألحان الليل ، وأوقعتهم فى حبها . فأرسلوا إليها مشاعرهم المتأججة يطلبون اللقاء ، وأصابتها من مشاعرهم نشوة أنستها ما بها ، وغرها الأمل البراق ، فاندفعت إليه . وكان اللقاء وكانت الصدمة .

لقد خيل إليها فى كل مرة أن تلك المشاعر المتدفقة والحب الملتهب ، سيتجاوز عما بها من تشويه ، ذلك التشويه الذى أصاب جانب وجهها من جراء الحريق الذى أصابها فى طفولتها ، وكان الأمل يدفعها فى كل مرة إلى أن تلبى النداء وتذهب إلى اللقاء ، ثم تعود منه ملومة محسورة ، وهى تتخبط كالطير الذبيح .

أهؤلاء هم العشاق الذين يذوبون وجدا وصبابة ؟ أهؤلاء هم الذين كانوا يتلهفون على لقائها ؟

ماذا أصابهم حتى لقوها بمثل هذا البرود والجمود وانصرفوا عنها ، كأن ألحان الليل قد تطايرت وتبددت ، أو كأنها قد أضحت نواحا وبكاء ؟

لا ، لا ، إنها لن تخدع فى هذه المرة ، خير لها أن تظل فى جحرها المظلم ، من أن تخرج منه لتعود إليه كافرة به ثائرة عليه .

وأمسكت الخطاب فمزقته إربا .

* * *

وأقبل الليل فجلست تعزف وسط السكون المخيم ، وانبعث اللحن حزينا شجيا ، كأنه صادر من قلبها المحطم وفؤادها اليائس المدلهم .

وفجأة أحسست بحركة قرب النافذة ، وفى الظلمة الدامسة لمحت شبحا يقف .

وأصابها من رؤيته هزّة ، وارتجفت من قمة رأسها إلى أصبع قدميها .

ماذا تفعل به ؟

أتصده وتنكره ، قبل أن يصدها وينكرها ؟

وفجأة طاف بذهنها خاطر ومض فيه كلمح البرق .

لم لا تلقاه فى ظلمة الحديقة فتستعين بالظلام على سخرية القدر ، وتتمتع معه بلقاء لا مرارة فيه ولا خذلان ..؟

وهمست به .. إنها قادمة .

وبعد برهة قصيرة ، كانت الظلمة قد لفتهما فى إحدى خمائل الحديقة .

كان يجلس فى الظلام مطرقا برأسه ، متكئا على عصاه ، وكانت تجلس عنده متباعدة مشيحة بوجهها ، وقد أخذ قلبها يدق بشدة وعنف ، وأخذت تدعو بكل ما فى نفسها من حرارة : « ليته لا يرى » .

وتحدث هو ، فخرج صوته من صدره عميقا مخلصا شجيا ، حدثها عن ألحانها وموسيقاها ، وعن مدى تأثيرها فى نفسه وكيف أنها أنقذته من وهدة اليأس ، وبددت أحزانه .. ثم حدثها عن حبه لها ، وكيف أنه بات يحس أنها قد

أصبحت جزءا منه . .

وأصابتها من حديثه نشوة ومتعة ، فما سمعت من قبل مناجاة عاشق مستهام ، وما أحست أنها تحب .. إلا على صفحات الورق .

وحمدت الله ، والليل الحالك ، والظلمة المخيمة ، فقد أعاناها على التستر ، ووهباها لحظات حب كانت تتوق إليها .

ليحدث بعد ذلك ما يحدث وليكن ما يكـون .. كفـى أنها ستستمتـع بساعتها .

وبدأ يتحدث عن نفسه ، وقد أطرق برأسه وأخذ يعبث بعصاه فى رمل الحديقة ، وأنبأها أنه يستطيع أن يهيىء لها كل ما تود من راحة وهناء ، وأنه سيبذل لها كل ما يستطيع ، ثم تساءل فى النهاية .. هل يمكن أن يعوض حبه وإخلاصه عن العيب الذى به ؟

ورفعت حاجبيها ، وتساءلت فى دهش عما يقصد .

وبدا عليه اضطراب شديد ، وأخرج من جيبه منديلا يجفف به عرقا تصبب من جبينه ، ثم أنبأها بصوت خفيض مرتجف أنه ضرير .

ومضت لحظة صمت ، بدا فيها كل منهما شارد الذهن غارب البال ، ثم أخذت تقترب منه فى ثقة واطمئنان ومدت يدها فربتت عليه فى رفق وحنان .

وهمست مجيبة :

— ليس هذا عيبا .

ورفع يدها إلى شفتيه وأحست بقطرات من الدمع تبللها .

ثم سمعته يهمس :

— أسمعينى لحنى الحبيب .. لحن البعث الذى أضاء لى ظلمة عينى :

فى الليـــــل لما خلى   إلا من الباكـــــى

وأجابت فى صوت حنون :

— إن الباكى لن يكون بعد ذلك باكيا .

* * *

آه لو شاركتنى

وهفا كل فؤاد ، وشدا كل لسان
هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان
بعثت فى زوق مستلهم من كل فن
مرح المجداف يختال بحوراء تغنى
يا حبيبى هذه ليلة حبى
آه لو شاركتنى أفراح قلبى

على محمود طه ــ عبد الوهاب

عودتها فى ساعة غروب ، والشمس الدامية تهبط وراء الأفق من الناحية المقابلة من شاطئ النيل ، ووقفت متكئة بمرفقيها على حافة الشرفة مسندة ذقنها إلى راحة كفيها ، متطلعة ببصرها إلى النهر العريض ينساب فى قوة وأناة ورفق .

لم يتغير شيء ألبتة ، كل شيء ما زال على عهدها به كأنها لم تغادر المكان لحظة واحدة ، حتى الحجرة التى كانت بها قد عادت لتجدها خالية ولتحتلها مرة أخرى ، وتقف فى شرفتها كما تعوّدت أن تقف دائما . وكأن السنين الخمس ماولت وما انقضت ؟

خمس سنين !

إنها لا تكاد تصدق ، فهى فى وقفتها تلك لا تشعر أن الزمن قد تحرك قيد شعرة . لقد كانت تقف هكذا منذ أيام أو لحظات ، ليس هناك ما يدل على أن بين يومها وأمسها خمس سنوات طوال . اللهم إلا شيء واحد ..

إنه صوت حلو كأغاريد السحر ، يهتف بها من الحديقة بين آونة

وأخرى : « ماما » !

هذا الصوت يجسد لها فعل السنين الخمس ، ويقدم لها الأثر الملموس على أن بين وقفتها هذه ووقفتها تلك ، صنعت السنون هذه المخلوقة العزيزة المحبوبة التى تفصل بين يومها وأمسها .

ولم يكن قد مضى على عودتها أكثر من ساعة أبدلت خلالها ملابس ابنتها وتركتها تنطلق إلى الحديقة ثم جلست تفتح الحقائب وتخرج الثياب لترتبها داخل الدواليب .

وأحست بالتعب يتسرّب إلى نفسها فخرجت إلى الشرفة ترقب النيل والحديقة ساعة الغروب .

وسمعت وقع أقدام تسير فى الغرفة وتلفتت فوجدت « عمتها » مقبلة بوجهها البشوش الضاحك وخطواتها المتثاقلة وهى تتساءل قائلة :

ـــ كيف الحال يا عايدة ؟.. أوجدت متسعا لكل ملابسك ؟ إن فى حجرتى دولابا لا أحتاج إليه ، تستطيعين استخدامه كما تشائين .

ـــ لا أظننى سأحتاج إلى أكثر من هذا . كيف حالكم أنتم ؟ إن الحديقة تبدو مزدهرة كعهدى بها ، لا شىء قد تغير سوى التكعيبة التى أزيلت واستبدلت بها النافورة .

ـــ ما رأيك فيها ؟

ـــ آية فى الجمال !

ونظرت « العمة » إلى كوم الملابس وقالت :

ـــ دعينى أساعدك فى ترتيبها .

ـــ لا داعى لأن تتعبى نفسك . أستطيع أن أرتبها وحدى .

وبدأت المرأتان تتعاونان فى إخراج الثياب ووضعها فوق الأرفف .. وعاود الحديث فقالت عايدة متسائلة عن ابن عمتها :

ـــ كيف حال فريد ..؟

ــ كالحصان .. لقد ذهب ليبتاع بضع حاجات .. ولا بد أنه فى طريقه إلينا . إن شوقه إليك شديد .

ــ وليلى ؟

ــ لن تعرفيها إذا ما أبصرتها .. لقد صارت شابة .

ــ لا بد وأن تكون ساحرة فلقد كانت دائما طفلة جميلة .

ــ لقد أصبحت أجمل مما كانت .. خمس سنين فعلت بها كثيرا .. إنها الآن فى السابعة عشرة ، وهى تبدو عروسا مكتملة الفتنة .

وشرد الذهن بعايدة .. فتذكرت الصبية الشقراء اللاهية العابثة .. وقد أخذت تهتز بها الأرجوحة فى الحديقة .

كانت ليلى ابنة عمها .. وكانت تعيش معهم فى الدار الكبيرة الكائنة فى الروضة على شاطئ النيل ، والتى كانت تضم العائلة المكونة من العمة وزوجها وابنها فريد وابنتى أخويها اليتيمتين : عايدة وليلى .

كانت أياما ممتعة ما أحست عايدة باليتم أو بالمذلة فقد أغدقت عليها عمتها من العطف والمحبة ما جعلها تشعر بأنها لم تفقد أبويها .

إنها تذكر لعبها فى الحديقة ونزهتها على الشاطئ فيعاودها حنين لذيذ وشوق ممتع .

ولم يطل بذهنها الشرود فقد قطعه صوت العمة مستعيدة إياه من شروده ، منادية :

ــ عايدة !..

ــ نعم يا نينة .

ومضت فترة صمت ، وبدا على العمة التردد ثم قالت بصوت متهدج :

ــ لست أدرى كيف أنبئك بمبلغ حزنى على ما حدث ، لقد أحسست من موت محمود بصدمة أليمة ، وكنت إذا ما ذكرت وحدتك وغربتك ومبلغ فجيعتك فيه ، أفعم قلبى الحزن والأسى .. لقد كان مخلوقا طيبا كريما وزوجا

مخلصا وفيا ، وأعتقد أنه قد هيأ لك حياة طيبة رضية ، ولكن القدر لا يرحم والموت لا يميز طيبا من خبيث .

وخيم فى الحجرة سكون موحش ، ولم تسعف عايدة الكلمات ، فأطرقت برأسها فى حزن ووجوم .

واستمرت العمة فى حديثها قائلة :

ـــ كانت الواقعة مفاجأة أليمة لنا ، ولكنى مع ذلك تلمست العزاء فى عودتك إلينا بعد طول غيبة . فلشد ما أسعدنى أن أجدك تعيشين بين ظهرانينا مرة أخرى ، وأن تعودى إلينا أنت والطفلة الجميلة .

واحتلت الدموع مكانها من المقل وأخذت تنساب فى هدوء منفسة جهدها عن الصدور المكروبة المحزونة .

وسرعان ما تخلصت العمة من أحزانها وعادت إلى مرحها وبشاشتها ، وحاولت أن تغير مجرى الحديث قائلة :

ـــ اعذرينى أن نكأت قرحك ، ولكنها كلمات كان لا بد لها أن تقال .. هل أضع ملابس نانى فى هذا الدرج ؟

وأخرجت عايدة من صدرها زفرة حارة وأجابت :

ـــ أجل .

ـــ أظن الظلام قد خيم ، ومن الخير أن تنادى « نانى » من الحديقة حتى تتناول طعامها وتأوى إلى فراشها ، سأعد لها الفراش .. اذهبى أنت وناديها من الشرفة .

وخرجت عايدة إلى الشرفة وعلا صوتها مناديا :

ـــ نانى .

ـــ نعم يا ماما ؟

ـــ اصعدى .. لقد حان وقت العشاء والنوم .

وبعد نصف ساعة كانت الطفلة الجميلة ترقد فى فراشها ، وقد أخذ صدرها

يعلو ويهبط فى هدوء وسكينة .

واغتسلت عايدة وجلست إلى المرآة تمشط شعرها المنساب فى حلكة الليل ، وأخذت تتأمل وجهها وهى تضع عليه طلاء خفيفا .

وهتف فى نفسها هاتف يجزم فى ثقة بأنها جميلة فى أوج جمالها ، وقمة فتنتها وسحرها .

ولم يكن الهاتف مغررا أو خادعا ، فلقد كانت حقا آية فى النضارة والحسن ، نضارة امرأة مكتملة الأنوثة ، بالغة النضج والتفتح .

وأخذت تجمع شعرها لتعقصه وراء رأسها .. عندما سمعت خطوات خفيفة سريعة تصعد الدرج الخشبى الموصل بين الصالة السفلى والدور الأعلى الذى تقع فيه حجرتها .. ثم أخذت الخطوات تقترب بسرعة من حجرتها وسمعت صوتا يهتف فى فرحة بالغة :

ـــ أبلة عايدة !

وبعد لحظة اندفعت من الحجرة فتاة شقراء رائعة الحسن .

ونهضت عايدة لتتلقى الفتاة المندفعة بين أحضانها وأخذت ليلى تقبلها فى شوق وتقول فى فرح صبيانى :

ـــ لم أكن أصدق أنك آتية حقا ، وأنك ستعيشين معنا مرة ثانية ، إياك أن تسافرى بعد ذلك أو تأخذيننى معك . أين نانى ؟

ـــ لا ترفعى صوتك فهى نائمة !

ـــ لقد قالت عمتى إنها رائعة !

ـــ ليست فى مثل روعتك .. إنك سيدة البنات .

وسارت ليلى إلى فراش الصغيرة ووقفت تتأملها فى إعجاب شديد .. وقالت عايدة :

ـــ هيا بنا .. ألا تنوين النزول للعشاء ؟

ـــ سألحق بك بعد دقيقة واحدة أبدّل فيها ملابسى .. ستجدين فريدا فى

انتظارك .. لقد قدم فى التو .

ولم تكن فى حاجة إلى من ينبئها أن فريدا قدم فى التو فلقد سمعت صوته يعلو بأغنيته المحبوبة ، التى كان لا يفتأ يرددها فى كل حين .

عجبا .. إنه ما زال كما هو .. حتى أغنيته لم يملها بعد ولم تطغ عليها أغنية أخرى .

وتملكها إحساس غريب بالطمأنينة والثقة .. لقد كانت الأغنية أغنيتها هى .. أو أغنيتهما معا .

إنه لم ينسها .. لم ينس كليهما .. لا هى ولا الأغنية .

وأخذت تهبط الدرج وهى تنصت إلى الأنغام الخافتة المنبعثة من أسفل .

ووصل إليها صوته يدندن قائلا :

وهفا كل فؤاد ، وشدا كل لسان   هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان

وهبطت إلى الصالة وهى تحاول جهدها أن تتمالك نفسها وأخيرا وقفت أمامه وجها لوجه .

وران الصمت ، وسكت هو عن الغناء برهة وأخذ يحملق فيها بإعجاب ، وضحكت هى وقالت :

ــ هكذا .. لا ترحيب .. ولا سلام ولا كلام ؟

ولم يبد عليه كأنه قد سمع قولها ، وأخذ يردد أغنيته هامسا :

ــ هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان !

ــ أما زلت حسناء الزمان ؟

ــ هذا الزمان وكل زمان .

ثم أمسك بيدها وأخذ يهزها مرحبا وهو يقول :

ــ أهلا وسهلا .. كيف حالك يا عايدة ؟.

ــ كما ترى .

ــ مشرقة منيرة ، منذ أن أقبلت على البيت وأنا أتساءل : ماذا أنار الحى ؟

وأحست بالسعادة تغمرها .. إن السنين الخمس لم تغير منه شيئا .. إنه ككل شيء باق على عهده .. ما تغير ولا تبدّل .

وجلس الاثنان على إحدى الأرائك ، وكان لديهما الشيء الكثير مما يقال بعد فرقة خمس سنين ، ومع ذلك فقد ران عليهما صمت أحست هى منه بكثير من راحة ومتعة .

وبعد هنيهة علا صوت العمة تصيح من حجرة الطعام :

ــ العشاء جاهز .

ونهض الاثنان متجهين إلى حجرة الطعام وجلسا متجاورين قبالة العمة التى قالت ضاحكة مرحبة :

ــ لا جديد يا عايدة .. كل شيء كما تركته .. لقد صنعت لك « المسقعة » التى تحبينها .. ولكن أين ليلى ؟

وأردفت منادية :

ــ ليلى .

واندفعت ليلى إلى الحجرة ضاحكة وهى تجيب :

ــ آسفة يا نينة .. كنت أغسل وجهى .

واتجهت بحركة لا إرادية إلى الناحية التى يجلس فيها فريد وعايدة فقالت العمة :

ــ تعالى بجانبى يا ليلى .. لقد احتلت عايدة مقعدك .

وكانت عايدة ترقب الفتاة الشقراء وقد وقفت فى مكانها وهمت بتغيير اتجاهها لتجلس بجوار العمة ، ولمحت تردد الفتاة والابتسامة العذبة التى رمقت بها فريد قبل أن تستقر فى مقعدها المواجه لها ..

وأحست عايدة مما حدث فى اللحظة الخاطفة بناقوس خطر يدق وبأن شيئا جديدا لم يكن يخطر لها ببال .. قد حدث .

إن ما أبصرته كان من السرعة والبساطة ، بحيث لا تستطيع تمييزه إلا عين

خبير .. خبير بأحوال الهوى وأعراض الحب .

وفى اللحظة التالية حدث ما جعل وساوسها تصبح يقينا لا يداخله شك .. لقد قفزت ليلى من مقعدها وانطلقت إلى الصالة ، وبعد لحظة عادت ومعها جاكتة فريد ، ووضعتها فوق كتفيه وقالت مؤنبة :

ـــ قلت لك مائة مرة لا تخلع الجاكتة وتجلس هكذا فى الهواء وأنت عرقان .

وضحك فريد وقال لعايدة :

ـــ إن البنية الصغيرة أصبحت أما رءوما ..!

« بل أضحت ولهانة عاشقة » .

هكذا هتفت عايدة فى نفسها وهى تقول ضاحكة :

ـــ إنها على حق .. ما دمت لا تزال طفلا صغيرا .

من كان يصدق هذا ؟

أبعد هذه السنين الخمس من البعد والفرقة .. تعود لتجد الطفلة الصغيرة قد أصبحت منافسا خطيرا لها .

ولكن لا .. إنها قد تكون منافسا .. ولكنها لا تظن بها أية خطورة .. شىء بسيط من المقارنة يملأ نفسها ثقة وطمأنينة .. إن من الغباء أن تحس من الفتاة بأى خوف !

إن حبها له هو الأصل الثابت وما عداه عارض زائل .. إن لها رصيدا من ذكريات الماضى يجعلها تهزم به أى خصم جديد .. إنها أسبق إلى حبه .. وهى امرأة مكتملة الأنوثة تامة النضج ، تملك فى جانبها التجربة والمعرفة .. ومن الحمق أن تخشى الهزيمة من طفلة غريرة .

لقد أحبته دائما فى الطفولة ، والصبا ، والشباب ، لقد نشأت فى هذه الدار على حبه .. إنها تذكر السنين الخوالى ، وهما يعدوان فى الحديقة معا .. ويأكلان ويشربان معا .. وتذكر بدء إحساسها بجدية حبه .. ولهفتها على مصارحته به .. وإلى أن تسمع من شفتيه أنه يحبها وتنصت إلى عذب المناجاة وحلو الهمس .

إنها تذكر نفسها الهائمة ، وقلبها الذائب ، وساعات السهد الطويلة التى كانت ترنو خلالها إلى السماء وتناجى النجوم ، كانت لا تنام إلا على صوته الهادئ العذب يردد فى سكون الليل لحنها المحبب وأغنيتها العزيزة .

كانت تغمض عينيها فى كل ليلة على هتافه الحنون :

« يا حبيبى هذه ليلة حبى آه لو شاركتنى أفراح قلبى ! »

الليلة وكل ليلة .. كانت ليلة حبهما ؛ كانا يتشاركان أفراح القلب من بعيد ، فإذا ما التقيا وتقاربا ، انكمشت القلوب وتعثرت الألسن .

وأخيرا عزمت على أن تضع لتلك الحالة حدا ، وأن تزيل ذلك الحاجز الثقيل من التقاليد الذى يحجب بينهما .

إن الأمر أبسط كثيرا مما تتصور ، فما كان عليها إلا أن تسأله الخروج وإياها إلى الحديقة ذات ليلة والقمر يتبوأ أريكة السماء ويغمر الكائنات بنوره الرطيب ، ثم تجلس وإياه تحت التكعيبة .. والنسيم يسرى هادئا بين يديها ، وتقول له بمنتهى البساطة : « إنى أحبك » .

يا لها من حمقاء .. لِم لم تحاول أن تفكر فى هذا من قبل ! أم ترى لزاما عليه أن يكون البادئ بالتصريح ؟

وحلت الليلة الموعودة .. وجلست بجواره تحت التكعيبة وهمست قائلة :

— أريد أن أقول لك شيئا !

— وأنا أريد أن أقول لك شيئا !

وخفق قلبها بشدة إنه لا شك سيقول « إنى أحبك » لتدعه يقول هو أولا ، فلشدما يسعدها أن يكون هو البادئ ، وأجابته هامسة :

— قل أنت أولا .

— إنى سأسافر إلى إنجلترا قريبا .

وأذهلها قوله وهتفت قائلة :

— أنت ستسافر ؟ ولِم ؟

ـــ للدراسة .

وهمت بأن تقول : « ظننتك ستقول إنك تحبنى » ! ولكن الكلمات لم تستطع أن تغادر شفتيها ولم تجسر إلا أن تقول فى يأس :

ـــ ولكن ما الداعى لها ؟

ـــ لقد عرضوا البعثة علىّ وبدا لى أنها فرصة يجب ألا أتركها .. فقبلت . إنها بعثة للتخصص . ولا شك أنها ستفتح أمامى مستقبلا باهرا .

ولم تستطع أن تنصت إلى التفاصيل التى أخذ يدلى بها إليها عن البعثة والسفر .. ومواد الدراسة ، فقد أحست بخذلان شديد ، وبدا لها أنها كانت واهمة فى حبه لها وأنها كانت تمنى نفسها بأمنية ضائعة .

وأخيرا عندما انتهى من حديثه سألها :

ـــ والآن جاء دورك .. ماذا كنت تودين أن تقولى لى ؟

وعاودتها كبرياؤها . وأجابت فى رزانة بأول كذبة طافت بذهنها :

ـــ لقد صنعت لك « بلوفر » جديدا .. لا شك أنه سينفعك كثيرا فى السفر !

وغادرا التكعيبة .. ولم تمض بضعة أيام على لقائهما حتى سافر .

وبعد بضعة أشهر تقدم محمود لخطبتها ، وكان مخلوقا مهذبا رقيقا ، جميل التقاطيع ، حلو البسمات ، يمت لها بصلة قرابة بعيدة ، وقدم لها الحب والوفاء والمركز المحترم .

ورأت « العمة » فيه زوجا خليقا بها ، دون أن تبدى أى تردد أو تمنع فحبذ الزواج منه ، وبين يوم وليلة تمت الخطبة والعقد والزفاف .

وكان محمود موظفا فى السلك السياسى ، فلم يكد يمضى شهر على الزواج حتى تقرر نقله إلى الخارج .. وكان عليها أن ترحل معه ، وفى يوم الرحيل أعط « العمة » رسالة وصلت من فريد .

وفضت الرسالة ، فوجدت بها الشىء الذى طالما تمنته وانتظرته ولكنه كا

متأخرا ، لقد أفصح عن حبه أخيرا ، وكتب ما لم يجسر على قوله وسألها أن تنتظر عودته حتى يتزوجها .

وبكت ليلتها طويلا ، وأرقها السهد المضنى ، ولكنها لم تستطع أن تفعل أكثر من البكاء ، وفى الصباح رحلت مع زوجها .

ومضت خمس سنوات وهى تنتقل وإياه من بلد إلى بلد آخر .

خمس سنوات طوال ، كانت كافية لحدوث الشيء الكثير ، كافية لولادة نانى وموت أبيها ، ثم وجدت نفسها تعود فى خاتمة المطاف لتستقر فى بيت عمتها مرة ثانية ، ولتجد كل شيء على ما كان عليه عدا شيئا واحدا ، هى ليلى .

ولم تكن تتخيل أن حبها لفريد سيعاودها بمثل هذه السرعة وهذا العنف . فرغم أن ذكراه ما فتئت تطوف برأسها أينما ذهبت إلا أنها ظنت أنه لم يعد فى نفسها أكثر من ذكرى . ولم تتوقع قط أن قربه سينكأ جرحها ويملؤها بذلك الحنين والشوق إلى الحب القديم . وأنها ستغمر بالسعادة التى تنشدها عندما تسمع الأغنية العذبة .. أغنيتها هى . وتشعر أنه ما زال يحبها . ولا كانت تظن أنها ستحس بالغيرة من ليلى الصغيرة ، عندما تدرك أنها هى الأخرى تحبه .

وغادرت المائدة وبنفسها خليط عجيب من المشاعر : الحب ، والقلق ، والخوف ، والرغبة فى النضال .. النضال مع الفتاة الصغيرة التى تتوقع الخطر من جانبها .

وأخيرا استقر جسدها فى الفراش وأغمضت عينيها وقد صممت على أن تفوز به هذه المرة وألا تدع فرصتها الأخيرة تفلت من يديها .

وفى الصباح فتحت عينيها على قبلة من ليلى .. وعلى صوت الفتاة تهتف بها فى شوق وفرحة :

ـــ إنى لا أكاد أصدق أنك قد عدت حقا .. لقد كنا دائما نتحدث عنك أنا وعمتى وفريد ، وكنت لا أتمنى شيئا قدر أن أراك ثانية . لا أظنك تتصورين كم كنت أحبك وأعجب بك . لقد كنت دائما مثلى الأعلى .. ونموذجى الذى

أتشبث به . كنت أتطلع إليك كأنك شىء لم يخلق الله أمثاله . إنى أذكرك ليلة زفافك وأذكر ثوبك (البمبة) الطويل ، وقوامك الممشوق .. ومظهرك الرائع وحديثك الجذاب .. كأنك إحدى الملكات .. كم كنت أتوق إلى أن أصبح مثلك ؟

وبدد صوت الفتاة الملىء بالتقديس ما أحست به من بوادر البغض والكراهية ، وأدهشها أن تكن لها مثل هذه المشاعر .. وأدهشها أكثر من ذلك قولها بصوت خافت ولهجة حنون :

ــ كنت أراك وفريد نموذجا لزوجين .. وشد ما أدهشنى أن يسافر ويتركك تتزوجين غيره .. لقد كان يبدو لى أنكما تحبان بعضكما حبا يفوق كل حب ، بل أستطيع أن أجزم أنه ما زال يحبك حتى الآن .. وأنت . أما زلت تحبينه ؟

وضحكت عايدة وأحست بكثير من الارتباك من أحاديث الفتاة الصريحة الجريئة وضمتها إلى صدرها قائلة بصوت خافت :

ــ أجل .. ما زلت أحبه .

ثم ترددت برهة قبل أن تقول متسائلة :

ــ وأنت ؟

ــ أنا ؟ أحبه فقط ؟ إنى أعبده ! ألا ترينه يستحق العبادة ؟ لو أنى كنت مكانك لما تركته يتسرّب من يدى .

وصمتت الفتاة فترة ثم أردفت قائلة بحماسة :

ــ إنكما تستطيعان الزواج الآن .. ولا شك أن ذلك يضع خاتمة سعيدة لقصتكما .. إنى أحب الخاتمة السعيدة .. ولو أن الحياة لا تمنحنا إياها دائما .

وقطع عليهما الحديث صوت فريد ينادى من الحجرة الأخرى المجاورة :

ــ ليلى .. أيتها الكسولة .. لِم لم تحضرى الشاى ؟

ــ سأحضره حالا .. كنت أصبّح على عايدة .

وجلس الجميع يتناولون طعام الإفطار .. فريد بجوار عايدة ، ونانى تجلس على حجر ليلى بجوار العمة .. وفى خلال الطعام قال فريد لليلى :

ـــ لقد ابتعت تذكرتين للسينما فى حفلة صباح اليوم لأنى لم أكن أتوقع أن تعود عايدة .. ألا تظنين من الأفضل أن أرجعهما ؟

ـــ ولم لا تذهب أنت وعايدة ، إنى سأمكث هنا مع نانى .

وقالت عايدة :

ـــ لا .. لا .. يجب أن تذهبا ، إنى أريد أن أتمم ترتيب الحجرة .. وسأمكث أنا مع نانى .

ولم يعترض فريد .. ولم يقل شيئا أكثر من :

ـــ إذن البسى سريعا يا ليلى .

وبدا لعايدة أنه سعيد بذهابه مع الفتاة الصغيرة .. فإنه لم يلح عليها فى الذهاب ، وقبل اعتذارها بمنتهى السهولة .. وأحست أنها بدأت تتلقى أول طعنات الهزيمة .. وأحست أن فريدا .. إذا لم يكن يحب ليلى الآن .. فهو لا شك موشك أن يتردى فى حبها ، وأنه يتأرجح الآن بين هوى غابر وحب جديد .. وأنه لا بد لها من خوض معركة حامية الوطيس حتى تستعيده إليها .

وبعد الظهر عاد الاثنان من السينما وقد بدت عليهما علامات السعادة والغبطة .

وأمضت ليلى بقية اليوم فى اللعب مع نانى . وفى عمل مراكب من الورق تلقى بها فى النافورة .

ولم تغادر عايدة الفراش .. فقد أحست بأفكارها تصطخب فى ذهنها وتثقل رأسها .

وعندما سقط الظلام صعدت نانى إلى حجرتها وألقت بنفسها فى أحضان أمها قائلة ببراءة الأطفال :

ـــ ماما .. إنى أحب ليلى ، ألا تحبينها ؟

ـــ بالطبع أحبها إنها فتاة حلوة وطيبة .. إنها أشبه بالأميرة التى خطفها السلطان .. ألا تذكرين حكايتها ؟

ـــ أجل أذكر .

ـــ ولكنى لا أريد أن تموت ليلى .

ـــ من قال لك إنها ستموت ؟ إنها ستحيا عمرا طويلا .

ـــ وهل ستكون نهايتها سعيدة ؟ هل ستتزوج وتعيش فى التبات والنبات وتنجب صبيانا وبنات ؟

وضحكت الأم ثم أجابت :

ـــ بالطبع يا نانى كل فتاة ستكون خاتمتها كذلك .

ـــ أأنت واثقة .. أحقا ستكون لليلى نهاية سعيدة ؟

وتذكرت عايدة ما قالته ليلى « إنى أحب النهاية السعيدة ولكن الحياة لا تمنحنا إياها دائما » وسألت ابنتها فى دهشة :

ـــ أقالت لك ليلى شيئا عن النهاية السعيدة ؟

ـــ لا يا ماما .. ولكنى أتمنى لها ذلك ، فهى فتاة جميلة .

وبعد العشاء .. وعقب أن أرقدت عايدة طفلتها فى فراشها تركتها وذهبت إلى حجرة ليلى فوجدتها جالسة تقرأ فى إحدى القصص .. فخطفتها من يدها قائلة :

ـــ أريد أن أقول لك شيئا يا ليلى وسأقوله باختصار : هل تحبين فريدا ؟

ودهشت الفتاة لهذا السؤال المفاجئ ولكنها أجابت بصراحة :

ـــ أحبه جدا .. منذ أن وعيت على الحياة وأنا أحبه بل أتفانى فى حبه .

ـــ وأنا أيضا كذلك يا ليلى .. أتقبلين نصيحة مجربة ؟

ـــ أجل .

ـــ اذهبى إليه الآن وخذيه إلى الحديقة وقولى له « إنى أحبك » .

ـــ أتقولين حقا ؟

ـــ أجل ! لا ترددى ، ولا تعيقك كبرياء ولا خجل فقد أضاع ترددى ثانية عمرى سدى .

ـــ ولكنك قلت إنك ما زلت تحبينه !

ـــ أجل ! ولكنك أحق به ، إن من الحمق أن يعاند الإنسان القدر ، ومن

الجنون أن يسير الإنسان فى طريقه خمس سنوات ثم يعود القهقرى بمنتهى الهدوء والبساطة ليلتقط متعة فقدها .. ثم يعاود سيره مرة ثانية .. هيا يا ليلى ولا تترددى .

ثم هبطت عائدة إلى حيث يوجد فريد، فإذا به يوشك أن يخرج إلى الحديقة فسألها :

ــ ألا تريدين الخروج إلى الحديقة يا عايدة ؟

ــ لا .. إنى متعبة قليلا .. أريد أن أحدثك حديثا قصيرا .

ــ نعم ؟

ــ عن علاقتنا القديمة ، إنى أشعر أننا قد أصبحنا كأخ وأخت ، ويبدو لى أن حبنا القديم قد عفت آثاره (وكانت تشعر بمدى ما فى قولها من كذب) . إن أمامك ليلى ، تستطيع أن تجد فيها خير زوجة ، إنها ستلحق بك فى الحديقة لتقول لك شيئا .

وبعد برهة كانت تجلس فى حجرتها وقد لفتها الظلمة .. ونهضت إلى النافذة لتغلقها فأبصرت فى الحديقة تحت ضوء القمر شبحان يجلسان على حافة النافورة وقد تشابكت منهما الأيدى والتقت الشفاه .

ووسط السكون بلغ مسامعها لحن سرى مع النسيم :

« يا حبيبى هذه ليلة حبى ، آه لو شاركتنى أفراح قلبى ! » .

وترقرقت فى عينيها دمعة انسابت على صفحة وجهها .

وأغلقت النافذة وتلمست طريقها إلى الفراش فى الظلمة الدامسة .

ووصل إلى أذنيها صوت أنفاس هادئة تتردد فى سكون الغرفة وأرجائها .

كانت أنفاس ابنتها نانى .

وكانت لها خير عزاء .

* * *

وعادها الشوق

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها
واستخبروا الراح هل مست ثناياها
ما ضر لو جعلت كأسى مراشفها
ولـو سقتنـى بصاف من حمياها
ألقت إلى الليل جيدا نافرا ورمت
إليه أذنا وحارت فيه عيناها
وعادها الشوق للأحباب فانبعثت
تبكى وتهتف أحيانا بشكواها
يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت
كالحلم ، آها لأيام الهوى آها
(شوقى ــ أم كلثوم)

صفه لى .. صفه .. كيف يبدو ، وكيف يتلفت ؟.. وكيف يعبس ، وكيف يبتسم ؟

إنه لا يعبس ولا يبتسم ، إنه يجلس مواجها المسرح فى صمت وسكون .

ــ كيف ؟. إنى لم أتعوّد منه صمتا ولا سكونا .. إنه دائم المرح ، دائم الضحك ، كيف يستقر فى هدوء وسكينة ؟

ــ وماذا تريدين أن يفعل رجل فى مثل سنه ووقاره ومركزه ؟.. أنسيت أنه موجود هنا بصفته الرسمية ، وأنه أكبر من فى هذا الحفل ؟

ــ ولكن كيف يبدو ؟ وكيف يجلس ؟ ألا تستطيع أن تصفه لى ؟ صفه لى

كما تراه .

إنه يجلس فى حلته الرسمية الفخمة ، فى وقار واتزان ، تحيط به كل مظاهر الأبهة والوجاهة والأناقة .

ـــ أجل .. أجل .. لقد كان دائما مثالا للوجاهة والأناقة .. ووجهه ؟ كيف تراه ؟ أما زال بخده الأيسر أثر ذلك الجرح الذى أصابه عندما كبا به جواده ؟

ـــ ماذا تقولين ؟.. كيف أستطيع أن أميز الندب من هذا البعد ؟ إنى لا أكاد أبصر إلا جانب وجهه ، على أية حال ، اطمئنى . فلا شك أن أثر الجرح ما زال موجودا .. ما دمت واثقة من أنه كان موجودا !

ـــ وعيناه ؟ كيف تبدوان ؟.. ترى هل أحاطت بهما التجاعيد ؟

ـــ بالطبع .. إنى لا أستطيع رؤيتهما من مكانى ولكن لا شك أن التجاعيد قد سرت ، لا حول عينيه فقط ، بل فى كل وجهه .. إنه لا شك قد جاوز الخمسين !

ـــ فى العاشر من يونيو يصبح عمره بالضبط أربعة وخمسين عاما ، ولكن السن لا دخل لها بالتجاعيد ، أقصد التجاعيد التى حول عينيه ، لقد كانت موجودة دائما وهو ما زال فى أوج صباه .. كانت لذيذة .. وكل شىء فيه كان لذيذا . ما بالك لا تصفه لى ؟ صفه لى أرجوك .. صف كل شىء فيه .

ـــ صه .. صه . إن الستار يوشك أن يرفع ، لقد أطفئت الأنوار .. أظن هذا يقنعك بأن وصفه قد استحال علىّ ، فما عدت أراه من قريب أو بعيد .

ـــ ولكن أنا أستطيع رؤيته .. فى كل وقت ، وفى كل آونة ، من قريب أو بعيد ، فى الضياء ، وفى الظلمة ، فى السبات ، وفى اليقظة ، إذا كان وصفه قد استحال عليك ، فإنه لا يستحيل علىّ .. دعنى أصفه لك أنا .

ـــ صه . كفى عن هذا الهمس . إن الغناء يوشك أن يبدأ .

ـــ إنى أستطيع أن أراه وقد جلس جلسته المتئدة الرزينة الوقور ، وأستطيع أن

أجزم بأن وقاره ورزانته ليسا سوى مظهر أجبر نفسه على الظهور به تمشيا مع الوضع الذى هو فيه ، وحفظا لهيبة المركز الذى يشغله ، ومجاراة للناس فى تفكيرهم .. أما باطنه فهو لا شك يصخب بالضحك والمرح ويود لو انطلق من قيود جلسته الوقور ليمزح ويطرب .. إنى أعرفه جيدا .. فهو يكره التزمت ويبغض الجد .. كان يقول لى إنه كثيرا ما يضطر إلى أن يصرخ فى جنوده ، ويعبس فى وجوههم وهو فى نفسه أميل إلى الضحك والتهريج .. إنه لا يجدّ إلا متصنعا ، وكم ود لو لم يجدّ أصلا ولكنه يعلم أن الأمور لا تستقيم إلا بادعاء الجد ، وأن الحياة تحتاج إلى بعض الجد ، فى بعض الأحيان .

ــ أرجوك .. كفى همسا .. إن أصحاب البنوار المجاور لنا يتلفتون إلينا .

ــ أستطيع أن أراه فى جلسته ، مستقيم الجسد ، بارز الصدر ، مرفوع الرأس .. إنى أجزم بأنه لم يترهل ولم ينتفخ .

ــ أجل .. إنك على حق .. ما زال جسده مشدودا وهامته مرفوعة ، كأنه ابن الثلاثين .

ــ أعرف ذلك ، لقد كان لا يخشى إلا الكرش والسمنة وكان دائم الحرص على ممارسة الرياضة ، مضربا عن العشاء ، وكان يفخر دائما بأنه ضابط فرسان وأن الفرسان لا يترهل لهم جسد ولا يبرز لهم كرش .. انظر إليه ، أتراه ما زال بالطربوش أم خلعه ؟

ــ إنه يخلعه الآن ، لقد وضعه على مقعد بجانبه .

ــ كنت واثقة من هذا .. لم يكن يكره شيئا كما يكره الطربوش ، وكان لا يرى فيه أية وجاهة أو أى مظهر للوقار أو الوطنية ، ولكنه مع ذلك كان يضطر إلى ارتدائه فى الرسميات ، وفى الحفلات والمآتم .. كيف ترى شعره ؟ أما زال على لونه أم ترى الشيب قد وخطه ؟ كأنى به مكللا بالبياض ، لكنه بياض محبب لذيذ ، فيه جلال وجمال .. وأنى لواثقة بأنه لم يصب بصلع .. شعرة واحدة لم تغادر رأسه .

— تماما .. تماما .. كأنى بك ترينه رأى العين .

— بل رأى الذهن والقلب ، والروح ، إنى أبصر أنفه الأشم المرفوع .. وأبصر فمه الضاحك .. وأبصر شفتيه الرقيقتين ، الدائمتى الانفراج عن أسنانه البيضاء .

— إنه لم يعد يضحك .

— لو خلوت به لأمعن فى الضحك ، وعاد إلى طبيعته المرحة .

— ولو ضحك فما أظن شفتيه تنفرجان إلا عن طقم سليم منتظم .

— كلا إنه ليس هكذا ، إنى أعرف أسنانه ، سنا سنا ، لم تكن فى فمه سن واحدة ليست سليمة أو جميلة .. صحيح أن أحد أضراسه آلمه حينا ، لكنه سارع إلى علاجه وحشاه ، لا .. لا .. لن تسقط من فمه سن واحدة .

— هل تحبين أن نذهب إلى مقصورته للتمتع بمشاهدة أسنانه ؟ هيا بنا هيا ، أؤكد لك أن سماع أم كلثوم لا يطربنى أكثر من مشاهدة أسنانه .

— كفى سخرية ! أنت الذى اضطررتنى إلى وصف أسنانه ، لقد اتهمته بأنه يضع فى فمه أسنانا صناعية . ألم تقل أنت ذلك ؟

— آسف جدا .. إن أسنانه من اللؤلؤ المنثور .. أيرضيك ذلك ؟

— أنت سخيف ، لن أحدثك بعد ذلك .

— تحسنين صنعا ، فقد همت أم كلثوم بالوقوف للغناء . أظنك أنت أيضا تفضلين السماع ؟

ودوّت الأكف بالتصفيق ، وغطى الضجيج على ما عداه من همسات وأحاديث .. ووقفت أم كلثوم تعبث بمنديلها بين أصابعها ، وتبتسم منحنية للجمهور ، وردا لتحيته العاصفة .

وبدأت الوصلة الأولى .. وعلا صوت أم كلثوم وهى تنشد قصيدة « نهج البردة » ، وصمت كلانا ، وليس كصوت أم كلثوم ، وسيلة لإرهاف السمع ، وتركيز الحس والمشاعر .. وبخاصة فى هذه الأغنية على الأقل بالنسبة لى .

وكنت أتلفت إلى جارتى خلال الوصلة بين آونة وأخرى فى الفترات التى كان يفلت فيها زمام حناجر المستمعين فتنطلق بالهتاف .. كنت أتلفت إليها محاولا أن أستشف ما وراء زجاج منظارها الأسود الذى أخفى عينيها الخابيتين ، ولكنى لم أكن أتبين السكينة والهدوء .. ولم أشك فى أنها تستمتع بالغناء .. فقد كانت قبل كل شىء فنانة مرهفة الحس رقيقة المشاعر ، ولكنى لم أشك أيضا أن استمتاعها بالغناء كان لا يكاد يقاس باستمتاعها بشىء آخر .. الشىء الذى أجبرها على أن تتجشم مشقة المجىء إلى مكان الغناء .. غير مكتفية بالاستماع إليه مذاعا بالراديو .. وعلى أن تجشمنى مشقة اصطحابها .. وهى الحساسة التى تدرك جيدا مدى عبء اصطحاب ضريرة إلى حفل كهذا .

كنت واثقا أن الشىء الذى كان يشملها أكثر من الغناء هو إحساسها بأن صاحبنا الكبير يجلس هناك !

ليشعر بوجودها أو لا يشعر .. وليعرفها أو يجهلها .. فليس يهمها شىء من ذلك كله قيد أنملة .. يكفيها أن تحس وجوده وأنها تتنفس من هواء المسرح الذى يتنفس فيه !

مجنونة ؟! إى والله مجنونة ما فى ذلك شك ؟ مجنونة عاشقة . وللناس فيما يعشقون مذاهب . وعلى قدر الهوى اختلف الجنون !

إن ذلك الرجل الكبير — رغم أنه ما زال محتفظا بالكثير من رونق الشباب ونضارة الصبا — لم يعد بعد ذلك المعشوق الذى يوله من أجله قلب ، أو يسلب فى حبه لب ، ويطيش عقل .. اللهم إلا إذا كانت صاحبتنا تعشقه باعتبار ما كان .. وما زالت — لأمر ما — متعلقة بكل ما كان !

ولكن من كانت هى ؟ وكيف عرفتها ؟

عرفتها معرفة صداقة .. منذ عهد غير بعيد ، وإن كنت أعرفها معرفة سماع منذ طفولتى ، فقد كانت وقتذاك امرأة معروفة وغانية شهيرة يعرفها كل العظماء والدهماء .

ووجدت فيها امرأة مكفوفة البصر قد شارفت خريف العمر ، وأدهشنى عدم إبصارها ، فما كانت لدىّ أقل فكرة عنه .. وأحسست بالرثاء لها والعطف عليها ، وبخاصة لما وجدت من حلو حديثها ورقة مشاعرها .. وبدأت أكرر زيارتها فى بيتها ، وتوثقت عرى الصداقة بيننا بعد أن بدأت أتلقى منها دروسا فى العزف على العود ، الشيء الذى طالما كنت أتوق إليه ، والذى استطاعت هى أن تحققه لى بغير ما جهد ولا مشقة .

وهكذا زادت الأيام من صداقتنا معا ، ولم أكن أجد فيها أى عيب ، فقد كانت امرأة عفيفة كريمة ، واسعة الأفق سليمة التفكير ، لا يمكن أن توجد فيها هنة أو يؤخذ عليها مأخذ .. اللهم إلا ذلك الشيء الذى بدأ يتكشف لى على مرّ الأيام وعلى ازدياد الصلة وتوثق العلاقة .

كان أول ما لاحظته هو احتفاظها بعدد لا يستهان به من صور ذاك الكبير ، وقد استطعت أن أستبين من ذلك أن صاحبنا كان فى صباه على علاقة بها عندما كانت فى زهرة شبابها .

وأنا أعرف أن فى طبيعة ذلك النوع من النساء ، إذا ما كانت لهن علاقة سابقة بكبير من الكبراء ، أن يحاولن إبراز تلك العلاقة ويأبين اعتبارها شيئا انتهى ، فهى عندهن أثر دائم خالد ، يرفع من كبريائهن ، ويبعث فيهن الفخر .. بغرام قديم ، بل بعز تالد ومجد بائد .

وفى ذات ليلة هادئة شاعرية ، علمت منها أنها كانت وإياه — فى زمن ما — عاشقين مخلصين ، وأنه كان بينهما هوى أحرّ من هوى المجنون وليلى .. وأن الأمر كاد ينتهى بهما إلى الزواج ، لولا أن حدث حادث مزّق ما بينهما ، وأبعد كلامنهما عن صاحبه .

كان هذا كل ما علمته منها عن علاقتها به ، حتى كانت هذه الليلة التى عرفت فيها أن الرجل سيذهب بصفته الرسمية لحضور الحفلة الخيرية التى تغنى فيها أم كلثوم .

وسألتنى أن أصطحبها إلى هناك ، فدهشت إذ كانت المرة الأولى التى تسألنى أن أخرج وإياها .. وأحسست بأنها ستحملنى عبئا ثقيلا ، وقلت لها محاولا التخلص :

ــ ولكن الحفلة ستذاع .. فلم لا تسمعينها فى الراديو وأنت مستريحة ؟ إنى على استعداد لأن أقضى السهرة معك نستمع إليها سويا !

ــ أريد الذهاب ، وقد سألتهم أن يحجزوا لى بنوارا فإذا لم ترد اصطحابى فسأذهب وحدى !

وتبينت مبلغ ما فى قولها من إصرار على الذهاب وتأنيب لى على الرفض ، فلم أجد بداً من الموافقة !

وانتهت الوصلة الأولى ، وأفاقت صاحبتنا من نشوتها على صوت الضجيج والهتاف ، ورأيت الرجل الكبير يتحرك فى مقعده كأنما يهم بالقيام ، ثم أخذ فى الانصراف .

ونظرت إليها وقلت :

ــ يبدو أنه لن يحضر سوى الوصلة الأولى .

ــ لم ؟

ــ لقد نهض من مقعده وغادر البنوار .

ــ ربما كان ذاهبا إلى المقصف .

ــ لا أظن هذا ، فإنى أراه يتجه إلى الباب الخارجى وحوله رهط من الحاشية .

وبدا على وجهها الأمتعاض والضيق ، وصدق ظنى فى أن استمتاعها بالإحساس بوجوده كان أصل نشوتها . فقد وجدتها تطلق من صدرها تنهيدة حارة ثم حركت قدميها فى قلق وتساءلت :

ــ ألا تود النهوض ؟

ــ لم !

— إنى أحس ببعض التعب ، وأفضل العودة إلى الدار ، أرجو منك أن تعود بنا .

ولم أجد بدا من العودة .. وإن لم أستطع أن أمنع نفسى من حنق شديد .
هذه الأمور الصبيانية قد تكون محتملة عندما تحدث من العشاق الصغار ذوى الأحلام الطائشة والقلوب الرقيقة المرهفة ، ولكن عندما تحدث من مثل صاحبتنا . فإنها تكون مبعث حنق وموضع سخرية .
ما هذا الطيش الذى تفعله المرأة .. وهى فى خريف عمرها ؟ ومن أجل من ؟
من أجل رجل كبير وقور لا يكاد يحس لها وجودا ! لا .. لا .. هذا كثيرا !
إن الحب فى مثل هذه السن .. وبمثل هذه الطريقة .. يصبح أمرا ممجوجا مستثقلا .

ولكنى مع ذلك كنت أقدر المرأة وأحترمها وأحبها فسرعان ما تبدد حنقى عليها ، وسرعان ما تلمست لها الأعذار وقلت لنفسى إن لكل إنسان سخافته ، فلأعتبر هذه المسألة سخافتها ، ولأغفر لها .. ولا سيما أنها إذا ما استبعدت منها تلك السخافة ، تصبح نموذجا لامرأة عاقلة ، رزينة ، كريمة ، عفة .
وعدت معها واصطحبتها فى ظلمة الليل إلى دارها .. وهناك سألتنى البقاء لكى أتناول العشاء وأستمع إلى الوصلة الثانية .. فوافقت .
وأحضر الخادم بعض العشاء الخفيف ، ثم خلفنا وحدنا وجلست وإياها على إحدى الأرائك نزدرد الطعام ونستمع إلى الراديو ، وعلا صوت أم كلثوم فى الوصلة الثانية يردد « سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها » .
وبدأ الغناء فاترا ، وبدا لى من المرأة وإطراقها وصمتها أن بها كثيرا من حزن تود لو تلفظه من صدرها .. لتخفف من عبئه على كاهلها .
ومددت يدى إلى الجهاز فأدرت مفتاحه مخفضا صوته حتى أضحى يكاد لا يسمع .
وسألتها فى صوت خفيض :

ــ ما بك ؟

ــ لا شيء .

ــ بل بك شيء !

ــ ليس أكثر من شوق عائد .. اغفر لى ما حدث ، واعتبره سخافة عجوز .

ــ لا تقولى هذا .. إن القلوب لا تشيخ ولا تهرم .. وكلنا عرضة لما بك !

ــ لا أظن .. إن بى بعض الشذوذ .. كان يجب أن أنسى وأن أعقل .. وألا أعود فأحرك الشجن الكامن ، واللوعة الهاجعة .. كان يجب ألا أتعلق بسراب ، وأتشبث بحلم ضائع .. كان يجب أن أترك ما ذهب يذهب ولكنى لم أستطع . إن مصابى هو فرط إحساسى بأنى مظلومة ، وأنه لا أمل لى هناك فى عزاء سوى عزاء الشوق والحنين والذكرى !

ــ ولكن لم لا تلفظين بعض ما فى صدرك .. فتخففى عنك ما أنقض ظهرك ؟

ــ لا أستطيع . إنه سر يجب أن يبقى مطويا فى صدرى .

ــ حتى عنى ؟

ــ لست أدرى .

ــ وحتى لو بقى مطويا فى صدرى كما هو فى صدرك ؟

ــ الواقع أنى أريد منك عزاء .. وأكره أن أبدو أمامك عجوزا عاشقة مخرفة .

وسكتت قليلا ، ثم تنهدت ، وبدأت تقص قصة حبها البائد وشوقها العائد

ــ كنت فى زمن مضى .. منذ ما يقرب من عشرين عاما . غانية مصر الأولى .. كنت قبلة الرجال .. ومحط أنظارهم .

ــ أعرف هذا جيدا .

ــ وكان الكل يتلهفون على رفقتى ويتمنون مصاحبتى ولكن واحدا هو الذى استطاع أن يستحوذ على مشاعرى ويتملك قلبى .

ـــ طبعا هو .

ـــ أجل !.. وكان وقتذاك ما زال ضابطا صغيرا من الضباط الفرسان .. وكان دائم الحضور إلى الملهى الذى أعمل فيه مع « شلة » من رفاقه الضباط .. ووجدتنى على الأيام أختصه بكل حبى ، وأوثره على كل من حولى من المعجبين أصحاب الثراء والجاه ، وأولهم رجل من أصحاب الملايين كان وقتذاك متيما بى .. وكان من أقرب المعجبين إلىّ ولكنى لم أتردد فى أن ألفظه من أجله !

ـــ أكنت سعيدة وقتئذ ؟

ـــ منتهى السعادة .. وكنت متمتعة بأقصى ما توده امرأة .. كنت محبة محبوبة .. كنت أستعذب فى سبيله كل مرّ .. لقد كان شديد الكبرياء ، شديد الغيرة .. وكان أول ما طلب منى هو ألا أعرف إنسانا سواه ، وأن أهجر ذلك الرجل الغنى .. وأنت تعرف قيمة هؤلاء الرجال فى حياة الغانيات ، وتعرف أنهم ، وبخاصة فى ذلك الزمن ، من أهم عمد حياتهن ، وأكبر موارد رزقهن ومسببات ظهورهن ، ولكنى مع ذلك طردته من رفقتى ، وأنبأته بأن ما بيننا قد انتهى .. وهكذا تخلصت من كل من حولى .. وفرغت له ، غير نادمة ولا آسفة .. فقد كان يستحق كل تضحية . وكانت معاملته لى تختلف عن معاملة كل من لقيت .. لقد كان رجلا وكان يحبنى ويحترمنى .. يحبنى حبا قويا جارفا .. ويحترمنى كامرأة نقية طاهرة .. حتى انتهى الأمر بيننا إلى أن سألنى الزواج .

« وغمرتنى السعادة يومذاك ، وأحسست لأول مرة أنى امرأة نظيفة محترمة ، وهجرت الملهى ، وبدأت أتهيأ لحياة جديدة مستقرة .. وكنت أقضى الساعات الطوال وإياه على جوادين يضربان بنا فى عرض الصحراء .. بين التلال والوهاد ، ناعمين بالفراغ والخلوة .. كأننا ملوك الرمال .. وأصحاب الفضاء .

« لقد علمنى أشياء جديدة .. علمنى كيف أطرب لمهبط الشمس الغاربة فى الأفق ، وعلمنى كيف أقف لأتأمل زهرة جميلة .. علمنى كيف أشعر ، وكيف

أحس .. بعد أن كنت أنطلق في الحياة عادية لا ألوى على شيء .

« وهكذا سرنا فى طريق معبد للحب حتى كدنا نصل إلى النهاية الحلوة .. عندما حدث حادث من حوادث القدر التافهة ، التى كان يمكن ببساطة ألا يحدث .. فلا يعصف بحياة إنسان ويقلبها رأسا على عقب .

« حدث ذلك فى يوم كان ينتظر أن يكون نوبتجيا ، ويبيت ليلته فى الثكنات ، ولم يكن هناك ثمة أمل فى لقائنا تلك الليلة ، ولكن حدث أن تبدلت نوبته وحاول الاتصال بى للقائى فلم يفلح ، ودعاه بعض رفاقه إلى قضاء السهرة فى أحد النوادى .

« ولم يكن من هواة المقامرة .. ولكن رفاقه أخذوا يستدرجونه إلى اللعب .. وأخذت الخسارة تدفعه إلى الإمعان فيه رغبة منه فى تعويضها .. وهكذا استمر يخسر ويخسر حتى أضحت خسارته تربو على مائتى جنيه .

« وأنت تعرف قيمة الجنيه وقتذاك ، وتعرف ما كانت تعنيه مائتا جنيه بالنسبة إلى ضابط مثله لا يجاوز مرتبه الخمسة عشر جنيها .

« وكان عليه أن يستر الفضيحة بأية وسيلة .. ولم يكن أمامه من حل عاجل سوى أن يمد يده إلى الخزانة التى كان هو الأمين عليها ، ليسدد منها الدين معتقدا أن المسألة لن تكشف قبل أن يكون قد دبر أمرها .

« ولكن الأمر تعذر تدبيره .. ولم يكن قد أنبأنى بشيء مما حدث ، ولكنى استطعت أن أتبين فى وجهه منذ أول لقاء بعد ذلك مدى ما به من قلق وانزعاج .. وبعد إلحاح أنبأنى بالأمر ، وحاول طمأنتنى بأنه سيستطيع تدبير المبلغ بسهولة .

« ولكنى لم أقتنع ولم أطمئن .. لقد كان المبلغ بالنسبة لى يمكن تدبيره .. أما هو .. فمن أين ؟. وكيف ؟

« وإذا لم يستطع تدبيره .. فماذا تكون النتيجة ؟.. إن المسألة جد خطيرة .. ويجب أن تحل بسرعة .

« وكنت أعرف مبلغ كبريائه .. كبريائه التى تصل إلى حد العناد والجنون ، وكنت أعرف سلفا ما سيكون رده لو حاولت أن أعرض عليه تدبير المبلغ .. لم أكن أشك فى أنه سيهزنى ويسبنى . وينبئنى أنه ليس فى حاجة إلى مساعدة امرأة !

« وهكذا صممت على أن أقدم له المساعدة دون أن يشعر . وإمعانا فى الخداع ادعيت أمامه أن المسألة عسيرة ، وأن من الصعب جدا الحصول على مائتي جنيه فى مثل ذلك الوقت وبمثل هذه السرعة .

« ولكنه هز رأسه وقال : « ربنا يفرجها » .

« وتركته فى ذلك اليوم وأنبأته أنى لن أستطيع لقاءه لأن لى خالة مريضة لا بد من زيارتها .. وافترقنا على أن نلتقى فى اليوم التالى .

« وتركته ، مهمومة النفس مضطربة الذهن .. وكنت أحس حينذاك أنى مع الوقت فى سباق .. فقد كان علىّ أن أحصل له على المبلغ فى الليلة نفسها .. وكان علىّ أن أدبر طريقة لإرساله له دون أن أشعره بأنى صاحبة فضل عليه .. خشية أن تدفعه كبرياؤه إلى رفضه .

« لم تكن مشكلة الحصول على المبلغ أنه مبلغ ضخم .. فقد كنت أستطيع بسهولة أن أحصل على أضعاف أضعافه فى لمح البصر .. وبإشارة بسيطة من أصبعى .. ولكن المشكلة كانت فى إحساسى بأنى مقيدة بالوسيلة التى أحصل عليه بها .. أو — بصراحة أكثر — فى إحساسى بأنى ، مهما تكن الدوافع ، يجب ألا أفعل ما يخدش كرامته أو يجرح كبرياءه .. وأنى — بوصفى زوجته المقبلة — يجب أن أصون نفسى عما يشينها حتى ولو كان ذلك فى سبيل إنقاذه !

« وكان المعجبون القدامى على استعداد لأن يهبونى كل ما أطلب .. ولكنى كنت أصور لنفسى ما عساه يحدث إذا علم بذلك ، فتأخذنى الرجفة !

« لقد كنت أحبه ، وكنت أريد أن أنقذه .. ولكنى لم أكن أريد أن أنقذ مركزه لأحطم كبرياءه ، بل كنت أريد أن أحافظ على الثقة التى منحنى إياها ..

والحب الذى أحاطنى به .

« وهكذا ضاقت بى السبل.. ولم أجد أمامى سوى أن أجمع كل دانق أستطيع الحصول عليه .. برهن ما كنت أملك من حلى ، وبيع ما كان يمكن بيعه فى تلك الفترة القصيرة .

« وعدت إلى الدار فى تلك الليلة مكدودة الجسد محطمة الأعصاب .. وكانت ليلة قر عاصفة الريح شديدة البرد .. ولم آو إلى مضجعى ، فقد كان ما جمعته دون المبلغ المطلوب بقليل .. فأرسلت الخادم إلى صديقة كانت تقطن على مقربة منا لعلها تقرضنى بقية المبلغ ، وجلست فى بهمة الليل الصامت الموحش أصطلى نيران المدفأة وأحدق فى نيرانها المتأججة وأخذ الذهن الغارب الشارد يمعن فى الأوهام والتخيلات .

« كان علىّ أن أفكر فى أسلم وسيلة لإرسال المبلغ ، الوسيلة التى تجعله يقبل المبلغ ويؤدى به دينه .. وفكرت أول الأمر فى أن أرسله إليه باسم مجهول .. ولكنى رأيت أن هذا سيقلق باله ويضايقه وأنا أكره أن أسبب له القلق والضيق ، وخشيت كذلك أن تهديه الوساوس والتخمينات إلى حقيقة الأمر .

« ومر بخاطرى فجأة خاطر وجدت فيه خير حل للمشكلة .. وحمدت الله أن هدانى إليه .. وأن جعله يبرق فى رأسى المكدود المتعب.. على غير توقع .

« لقد ذكرت وقتذاك أنه أنبأنى ذات مرة بأن بينه وبين أحد أعمامه خصومة شديدة ، فقد وضع العم يده على بضعة أفدنة ورثها هو عن أبيه ومرت السنة تلو السنة دون أن يعطيه عمه حقه منها مدعيا أن الأرض بور .. ثم اشتراها بعد ذلك منه .. ولكنه لم يعطه سوى جزء ضئيل من الثمن ، وبقى حتى الآن مدينا له ببضع مئات من الجنيهات .

« وذكرت أنه قال لى مازحا فى ذات يوم : إنه لا سبيل إلى الحصول على ذلك الدين ، سوى أن يتزوج من ابنة عمه ، ثم يخيِّره بين دفع الدين أو طلاقها !

« مرّ كل ذلك بخاطرى مرّ البرق ... ووجدت فى عمه خير منقذ للموقف فقد

كان دائما يتوقع أن يرسل له عمه الدين أو بعضه فى أى وقت .. بل كان دائما يدخل الدين فى حساب مشروعاته المستقبلة ويعده شيئا لا بد آت .

« وهكذا استقر بى الرأى على طريقة إرسال المبلغ إليه وأحسست بعد ذلك براحة كبيرة ولا سيما أنى كنت على يقين من أنه لن يحاول سؤال عمه هل أرسل المبلغ أم لا .. بل كنت واثقة بأنه لن يحاول حتى أن يشكره على إرسال المبلغ » .

وتنهدت مرّة أخرى قبل أن تستأنف حديثها وتقول :

« وتنفست الصعداء ، وأرخيت أطرافى على المقعد الذى كنت أجلس عليه أمام المدفأة ، وأسندت رأسى على حافة المقعد .. وأغمضت عينى مستسلمة للراحة والهدوء .. وهاجمنى النعاس فلم أقاوم .. ولم أدر كم لبثت فى إغفاءتى .. ولكن الذى أدريه أنى استيقظت فجأة وأنا أحس بلسعة فى وجهى .. وأشم رائحة دخان و« شياط » تملأ الجو وكأنى أوشك أن أختنق .

« لقد تطاير بعض الشرر من المدفأة دون أن أشعر بذلك . فسرت النار إلى الرياش وإلىّ .. ووجدت النار قد اشتعلت فى كل ما حولى !

« ولم أفكر وقتذاك إلا فى شىء واحد .. نعم لم أفكر فى نفسى .. ولا فى الأثاث المحترق .. بل تركز ذهنى فى شىء واحد .. هو النقود .

« ووجدتها على المنضدة .. فى حقيبة يدى الجلدية .. سليمة كما هى .. لم تمسسها النار فأمسكت بالحقيبة وقذفت بها بعيدا عن النار إلى حجرة مجاورة .

« وبدأت محاولتى فى الاستغاثة وفى إطفاء النار .. وكل همى أن أحصر النيران فى موضعها حتى لا تمتد إلى بقية الدار .

« ووصلت الخادم ، ووصل الجيران .. وتعاون الجميع على إنقاذى ، وعلى إخماد الحريق .. حتى تمكنوا فى النهاية من التغلب عليه .. وانتهى الأمر بسلام .. دون أن أخسر ، إلا شيئا واحدا .. أظنك تستطيع تخمينه » .

ونظرت إلىّ بمنظارها الأسود .. وتخليت ما يحجبه الستار الزجاجى من بصر خاب وعينين مظلمتين .. وأصابتنى رجفة ، وحاولت جهدى أن أحبس

دمعتين همتا بالانسياب من مقلتى .

وران الصمت برهة .. ووجدتنى أقطعه هامسا :

ـــ وبعد ؟

ـــ رقدت على الفراش .. مغمضة العينين .. إغماضة الأبد .. وكان أول ما فعلته عندما أفقت من إغمائى .. أنى طلبت الخادم .. وأمرتها بأن تأخذ المبلغ من الحقيبة .. وأن ترسله إليه بالبريد على أنه من عمه .. وظللت أتقلب على الفراش متململة .. فلم أهدأ حتى عادت وأنبأتنى بأنها قد أرسلته .

وعادت إلى الصمت مرة أخرى .. وعدت أستحثها لكى تتمم حديثها متسائلا :

ـــ وماذا فعل هو ؟

ـــ وماذا كان يستطيع أن يفعل ؟.. لقد حزن علىّ حزنا شديدا ... واستمر يعودنى كل يوم ... وأنبأنى بأن عمه أرسل إليه النقود وأنه قد سدد بها دينه .

ـــ وزواجكما ؟

ـــ لقد أحللته منه .. ماذا كنت تظننى فاعلة ؟ أألقى عليه عبء امرأة ضريرة لينوء به مدى حياته ؟ لقد عرض علىّ الزواج .. ولكننى رفضت .. فقد اعتبرت عرضه رثاء وعطفا وتأدية للواجب .. ولم أكن حمقاء لأنقذ حياته ثم أدمرها ثانية .. لقد أبيت زواجه .. ورجوته أن يتزوج من يشاء ومتى يشاء .

ـــ وهل تزوج ؟

ـــ أجل ...

ـــ من ؟

ـــ ابنة عمه الذى أنقذه أبوها .. من الدمار والضياع !

ـــ كيف ؟.. ألم تنبئينى بأنه استمر إلى النهاية دون أن يعرف الحقيقة ؟!

ـــ بل لقد عرف .. ولكن بعد أن تزوج وأتى إلىّ ذات ليلة فجثا أمامى راكعا وبلل وجهى بالدمع .. دمع الشكر والحب والتقدير .. وكان هذا خير ما لقيت

من عزاء .. انبأنى مرة ثانية بأنه على استعداد لأن يترك زوجته من أجلى .. ولكنى رفضت وسألته الرحيل .. ثم حاولت بعد ذلك أن أنساه !

ـــ ولكن النسيان قد تعذر عليك ؟

ـــ لم يتعذر تماما .. إنى أكاد أنسى ، لولا شوق يعاودنى من آن لآخر .. فينكأ القرح ويدمى الجرح .

وساد الصمت ، ومددت يدى متشاغلا بإدارة مفتاح الراديو .. وفى سكون الليل علا صوت أم كلثوم أشبه بأنين قلب مكلوم يهتف :

« وعادها الشوق للأحباب فانبعثت   تبكى وتهتف أحيانا بشكواها »

ولم تكن وحدها التى انبعثت تبكى .. لقد كنت أنا أيضا أبكى .. على أنى تمالكت نفسى وتماسكت .. وعدت أستمع إلى الصوت الساحر الذائب الذى يزفر وجدا ويلهث جوى :

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت   كالحلم ، آها لأيام الهوى آها
